صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون ٤٢٩٩٢

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر ونصفه

بدل الاشتراك
مصـ
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد الثامن « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ محرم سنة ١٣٥٢ — أول مايو سنة ١٩٣٣ » السنة الأولى

فهرس العـــدد

شروح وحواشي

عام ١٣٥٢ — أشرقت على الدنيا شمس المحرم فى اصفرار يشبه الكسوف! وانكسار يقارب المذلة! كأن صبحه الضاحى لم يغرق الكون بالنور، ويخرج العالم من الضلالة! وكأن يومه الأغر لم يغير وجه الزمان وينتصب علما فى تاريخ الخليقة! وكأن الهجرة التى يشع هذا اليوم بذكراها لم تدفع الانسانية فى طريق الكمال آلافا من المراحل وهى على بعيرين هزيلين يتنكبان الجواد ويمشيان على كلال ووجل! وكأن الفلك لم يدر به القرون الطوال على دين حرر العقول، وملك طبق الأرض، وحضارة مدنت العالم! ولكن ليت شعرى لم لا تنكسف شمس المحرم، وهى إنما تطلع اليوم على أطلال من المجد والملك والخلق لا تبعث فى العين غير الدموع، ولا فى النفس غير الكآبة؟!

لقد أصبحنا وما نملك لذكرى الهجرة إلا مظهراً وضيع الشأن قاصر الدلالة: عطلة رسمية فى الحكومة، وحفلة كلامية فى جمعية الشبان! أما المظهر الشعبى الذى يغمر الشعور بالبهجة، ويعمر القلوب بالعزة، فكأن نفوسنا لم تتهيأ له بعد!

وفى العراق — وا أسفاه — يستقبلون المحرم بلدم الصدور بالأكف، وضرب الظهور بالسلاسل، وإقامة المناحات فى الشوارع والمنازل، فيضيع بذلك عيد المجد النبوى فى مأتم السبط الشهيد، وتأبى هذه المصادفة المشئومة على حكومة بغداد، أن تجعل يوم الهجرة عيداً من الأعياد! وفى سائر البلاد الاسلامية يمر هذا اليوم المسكين فلا يعلنه تقويم ولا يحفله أحد!

رحماك اللهم! فأين الشرق من الغرب!! وأين المحرم من يناير؟!

نهضة العراق — كثر اليوم حديث الصحف المحلية عن العراق ونهضة العراق، وفى ذلك رضا للعاطفة التى أحملها لهذه البلاد الكريمة يدفعنى الى إعلان هذا الفوز. فوزارة المعارف تريد على ماروت إحدى الصحف أن تستعين بما وضعته معارف العراق من الأناشيد، فى تقرير هذا النظام الجديد. وتنشر الصحف أن لجنة ألفت فى وزارة المعارف العراقية (لتغيير) الأناشيد المدرسية! فتقدم اليها على الفور جمعية الرابطة الأدبية فى بغداد ثلاثين نشيداً منها: تحية العلم، الحرية، تربية الطفل، المطر، تدبير المنزل، تحية الملك، نشيد النهضة، نشيد الوحدة، نشيد الحماسة، نشيد الفتاة، النشيد الوطنى، الرياضة، الكشافة، العلم والعرفان: ويقرأ هذا الخبر شعراؤنا الفحول فيسألون الله السلامة، ويتضاءل فى نفوسهم الرفيعة معنى الزعامة! وتضرى الخصومة السياسية عندنا فتمزق العلائق والاعراض فيضرب الكتاب المثل الأعلى بالخصومة النبيلة التى تقع بين ساسة العراق فلا تتعدى أندية الاحزاب ولا دواوين الحكم. وتحس الصحافة المصرية حز القيود فتغبط الصحافة العراقية بحريتها الجديدة، وتشكر لحكومتها السعى فى تقرير نقابتها العتيدة.

والحق ان فى الشعب العراقى أفضل مافى الشعوب الناهضة من حيوية وطموح ومرونة ورجولة، فاذا أضفت الى هذه الخلال انه جذ من ورائه تقاليد النظام القديم، وان معاهدته الجديدة قد قللت من الاستشارة الاجنبية المعرقلة، وان حكومته بسيطة الآلة ضيقة الدائرة، حتى لتسنح الفكرة للمدير العام (وكيل الوزارة) فى مجلس من المجالس أو تقترح عليه فتصبح قانونا أو لائحة، أدركت سر القوة الحافزة فى نهضة العراق. أما الحكومة الملتوية المعقدة ذات الزوايا والخبايا فان المقترح أو المشروع يضل فيها بين توزع المسئولية وتقسم الرأى فيخرج من مكتب الى مكتب حتى يدركه الموت من الاعياء فيقبر فى درج أو سلة!!

الادب المصرى الحديث ادب ثرثرة — هكذا قالت (العاصفة) فى بيروت، ثم تفضلت على الصديق طه فنصبته زعيما على هذا الأدب! وقالت: «ان الأدب الحديث الناشىء فى مصر أدب لا يزال بحاجة الى صقل وتهذيب فهو أشبه بالحجارة غير المنحوتة» ثم قالت فى موضع آخر «وأصدق قول ينطبق على القسم الأعظم من هذا الأدب الذى يتحفنا به أدباء مصر انه أدب ثرثار فان رجاله حائرون بين الابتكار والتقليد فيشوقهم أن يكونوا من المبتكرين وأن يسيروا فى التيار الغربى فاذا القديم يغلب عليهم...» ومقال العاصفة على (ثرثرته) اندفاعة نفس شابة لاتزن الكلام ولا تبالى التبعة، وهى لا تملك ولله الحمد ميزان القضاء ولا أهلية الحكم. فالدفاع أمامها دفع بعدم الاختصاص. على أن من الخير لنا ولها أن تقف قليلا عند قولها: «ولم تشعر مصر بروح الأدب العالى تجول فيها إلا يوم ارتادها أدباء لبنان وسورية... فالادب الذى حمله الى مصر تقلا ونمر وصروف وإسحق واليازجى وحداد وزيدان والرافعى والمطران وسواهم هو الأساس فى نهضة مصر الادبية الحديثة ولولاه لم يكن حافظ ولا شوقى ولا العقاد ولا المازنى ولا طه حسين ولا ولا الخ. نعم نقف قليلا عند هذه الجملة الطائشة لنقول للكاتب وأمثاله: ان الزمان لم يدع فى أيديكم وأيدينا من المجد المشترك إلا هذه اللغة وهذا الادب، فلم تأبون إلا أن تقسموها على البلدان وتوهنوا أسبابهما بهذا الهذيان؟ تلك نعرة بدوية ونغمة مملولة. والعاصفة التى أثارت هذا الموضوع الجاهلى تتشدق بالتجديد! فهل علمت مايشبه ذلك بين الادباء فى فرنسا وسويسرا وبلجيكا، أو بين الادباء فى انجلترا وأمريكا؟ وماذا يضيرها إن تركتنا متآخين متحابين على هذا المنهل الباقى ننعم جميعاً بريه ومائه، ونحرص جميعاً على فيضه وصفائه؟؟

شاعر وشاعر:

هو الحظ، غير البيد ساف بأنفه خزامى وأنف العود بالذل يخذم!

فى اليوم الذى تحتفل فيه لبنان بذكرى (لامرتين) فى الشرق تجىء أخبار الموصل بأن بلديتها هدمت قبر أبى تمام! فأما تكريم لبنان لذكرى الشاعر الفرنسى فلم يخرج عن سنن العرب فى تمجيد الادب وأهله، والاعتراف باحسان المحسن وفضله. وأما تكريم الموصل للشاعر العربى بهدم ضريحه وطمس أثره فذلك مالم نفهمه لا من طبيعة الشىء ولا من سياق الخبر ولا من احتجاج العرب ولا من روح العراق. فهل يكون السبب ان مدينة (الخالدين) عدنانية وأبا تمام من قحطان، أم السبب انها عراقية والطائى من قرى غسان؟!

قرية الادباء — من أنباء موسكو ان الحكومة الروسية قررت بناء قرية للادباء بالقرب من لينغراد ورصدت لها من مالها مايساوى مائة ألف جنيه ذهباً وستحظر على غير الادباء دخولها إلا باذن رسمى

من غـــــــير عنوان

للاستاذ احمد امين

أكلت أكلة ساء هضمها — فانقبضت نفسي ، وغاضت بشاشتي ، وتقطب ما بين عيني ، وسئمت كل شيء حولي ، وبرمت بمخالطة الناس كما برمت بالعزلة عنهم، وكرهت السكوت كما كرهت الكلام.

ونظرت الى العالم فتجهمته ، رأيته ثقيل الروح ، فاسد المنطق ، يمج السمع نغماته ، ويعاف الطبع منظره ، وتأخذ بخناق ألاعيبه وأحداثه .

أي شيء فيه يسر ؟ ان هو إلا جيفة تنهشها الكلاب ، وميتة يتساقط عليها الذباب، عدو كل ألفة ، ومصدع كل شمل ، يبلي الجديد ولا يجد البالي . ليست لذته إلا ألماً مفضضاً ، ولا مسرته إلا حزناً مبهرجا!

ودعوت ربي بالسلامة جاهدا   ليصحني فاذا السلامة داء

ما حال من آفته بقاؤه   نغص عيشي كله فناؤه

. أليس عجيباً ألا تكون لذة حتى يحدها آلام، ولا راحة حتى يكتنفها عناءان ؟!

سعيد وشقي ، وفقير وغني ، وذكي وغبي، ليست إلا الفاظا اصطلح عليها، فان أنت تأملتها لم تجد كبير فرق بين مدلولاتها:

ما الظاعنون بعزها ويسارها   إلا قريبو الحال من خيابها

أكبر الناس قيمة، الاشياء وأضاعها، الموت وتفاوت وافى الجاه والثراء وسوى بينهم القبر !

ومن ضمه جدث لم يبل   على ما أفاد ولا ما اقتنى

يصير ترابا سوا عليـــه   مس الحرير وطعن القنا!

ليست الدنيا إلا قطرة من شهد في بحار من علقم ، وذرة من سعادة في جبال من شقاء يلح الدهر بؤسه وعنته حتى اذا ما تيأست النفوس وبلغت الروح التراقي سخا بقبس من نعيم ثم اطفأه برياح عاتية من عذاب !

قد فاضت الدنيا بأدناسها   على براياها وأجناسها

وكل حي فوقها ظالم   وما بها أظلم من ناسها

نظام كله فوضى! وحياة كلها فساد. رذيلة تسعد وفضيلة تشقى!

والناس شتى فيعطى المقت صادقهم

عن الامور ويحبى الكاذب الملق

بحار تشكو الري، وصحراء تشكو الظمأ، وماء ولا شارب. وشارب ولا ماء !

تباركت! أنهار البلاد غزيرة   بعذب وخصت بالملوحة زمزم

غني عقيم ، وفقير عائل :

سبحان من قسم الحظو   ظ فلا عتاب ولاملامه!

أعمى وأعشى ثم ذو   بصر وزرقاء اليمامه !

عيش كله هذيان ، أعاليل بأباطيل، والدنيا تلعب بنا لعب الكرة !

ترينا الدجى في هيئة النور خدعة   وتطعمنا صابا فنحسبه شهدا

كذب المؤرخون فسموا زمنا سلما وزمنا حربا، وما السلم الا حرب صامتة شر من الحرب الناطقة ! كل شيء في العالم مفترس ، أسد يفترس ذئبا، وذئب يفترس حملا، والانسان يفترس كل شيء حتى نفسه !

قوم سوء فالشبل منهم يغول الليث   والليث راح أكل شبله!

كان العالم عالم سوء فتوج الانسان شروره

كلما أنبت الزمان قناة   ركب المرء في القناة سنانا

عالم كله أحاجي وألغاز، وعقل قاصر عنيد ، منذ خلقه الله يحاول أن يفهم ، يحوم حول العالم يريد أن يعرف الغرض منه فلا هو يصل ولا هو يعدل

تفارق العيش لم نظفر بمعرفة   أي المعاني بأهل الارض مقصود؟

الله صورني ولست بعالم   لم ذاك ، سبحان القدير الواحد!

حياة حار فيها الحكيم وضل فيها الفيلسوف، مبادىء تتضارب ، وصور تتنازع ، وكلام مزخرف . ظاهره جميل وباطنه مزيف وكلما ظنوا أن قد حلوا مشكلة نجمت مشاكل — وقديما قضى الفلاسفة حياتهم في الجوهر والعرض والكمية والكيفية وأيس وليس، ثم عادوا آخر المطاف يعترفون بالفشل ويقرون بالعجز ويقولون مع القائل :

نهاية اقدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

خاص . وغايتها من ذلك بالطبع استخدام الادب في تأييد الحكم السوفيتي ونشر المذهب الشيوعي . والذي يعنينا من هذا الخبر انه تنفيذ مسخي لقلم الشعراء الذي يقترحه على وزارة المعارف صديقنا الهراوي ، وتحقيق لفكرة (المدينة الفاضلة) التي خططها في الخيال أستاذنا الفارابي ! !

احمد حسن الزيات

زاد تلبك معدتي، فزادت من الحياة نقمتي !

فياموت زر ان الحياة ذميمة ويانفس جدى ان دهرك هازل

***

تناولت دواء هاضما فأخذت أهش للحياة وأبش ، وبدأت أنظر الى العالم بوجه منطلق ، ومحيا منبسط — ها هو ذا قد تألقت صفحته ، وأسفرت غرته ، وانقشعت غمامته .

الحق ان العالم جميل ، فهذا نسيم يعطر الجو بعرفه ، ويحيي النفوس برقته ولطفه ، وهذا الربيع نزهة العين ، ومنطق الطير . وهذه الحديقة عقد منظوم ، ووشي مرقوم .

اصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جلاء للبصر
والارض في روض كأفواف الحبر تبرجت بعد حياء وخفر

كل شيء حولي يضحك ! ليس في الامكان أبدع مما كان .

قلبي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه !

ان الحياة غنية باللذائذ ، وليست الآلام فيها الا توابل تهيء لاستمراء اللذة .

والشوك في شجرات الورد محتمل

ما الدنيا الا قيثارة يوقع عليها شجى الالحان ! أو مائدة شهية صففت عليها صنوف الألوان !

وقد تخمد الشمس الصباح بضوئها

تفاوتت الأنوار والكل رائق

ان كان في الدنيا سخف وهذيان، فكن فيلسوف الضاحك، ولا تكن الفيلسوف الباكي !

وان كانت الدنيا ألغازاً وأحاجي ، فكم نجح العقل في حلها واستجلاء غامضها . وكل يوم تتسع دائرة المعلوم ، وتضيق دائرة المجهول . والعقل يلذه البحث ولو لم يصل ، ويشعر بالغبطة ولو لم ينل . وفي نجاحه فيما أدرك، عدة له فيما لم يدرك .

***

رحماك اللهم ! إن كان درهم من دواء هاضم يغير وجه العالم ويحيل السواد بياضاً ، والشقاء سعادة ، والقبح جمالا ، والظلام نوراً ، والحزن سرورا ، فأين الحق !

التجديد في الادب

« حول مقال الأستاذ احمد أمين »

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت في « الرسالة » مقالا للاستاذ الفاضل احمد امين عنوانه « التجديد في الأدب » فرأيت آراء بينة استحسنتها ، وألفيت رأيا آخر لم أقبله . وقد هممت أن اكتب مجادلا الاستاذ ثم بدا لى أن أرجىء الكتابة حتى يتم مقالاته، فلما قرأت المقال الثاني زاد الخلاف بيني وبينه . ثم عرفت أنه سيتلبث قليلا فلا يكتب عن هذا الموضوع في العدد الآتي، فسارعت الى الكتابة وأنا اشعر أن الذي يحبب الى مجادلة الأستاذ حبي واعظامي وتلمسي محادثته كلما وجدت اليها سبيلا في المجالس أو في صفحات المجلات .

قابلت الاستاذ بعد أن قرأت المقال الأول فقلت : سأنقد مقالك أو أشرحه . فقال مازحا : قبل أن تقرأه ؟ قلت نعم. ذلك أني أنشأت أنا وصديقي الأستاذ العبادي في بعض الأسفار أبياتا وسميناها «القصيدة المكتمة» وكتمناها الاستاذ فقال: لا أبالي هذا الكتمان ، وسأشرحها دون أن أراها . وأذكر أني قابلته مرة فقلت : «سؤال» فقال قبل أن يستمع الى سؤالي: «جواب» أتريد أن أجيب قبل السؤال أو بعده ؟ ولكن ليطمئن أستاذنا وليعلم أني قرأت مقاله قبل أن أكتب عنه ، وهو أمامي الآن أقرؤه وأكتب ما يبدو لى فيه .

أعجبني قول الاستاذ عن المجددين : « فاذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد ، وما ضروبه ومامناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي؟ جمجموا في القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ولا واضحة الدلالة » وأنا أزيد على هذا أن التغيير ليس فضيلة ينبغي الحرص عليها والتنافس فيها والتفاخر بها ، وانما يستحسن التغيير أو التجديد حين تدعو الحاجة اليه . والكاتب النابغ اذا أحس الحاجة الى التجديد بدل وغير وابتدع في غير صخب ولا سخرية ولا مباهاة، ثم عرض على الناس نتاج رأيه ، وثمرة ابتكاره فيرضونها ، أو يجادلون في أمر وضحت معالمه واستبانت حدوده . الكاتب المجدد حقاً هو الذي يمضي في سبيله قدما، مبيناً عن آرائه ومشاعره على الأسلوب الذي يفي بهذا البيان . والخطة التي يؤثرها ويفصلها لايتكلف الاغراب والشذوذ ليقال انه مجدد . والشاعر

المطبوع هو الذى يسير على فطرته مخلصاً لنفسه مبيناً عنها لا يبالى أن يكون قد لزم الجادة المطروقة أو حاد عنها، ثم يعرض على الناس شعره فيما اختار من موضوع وأسلوب فى الوزن والقافية . فاذا ثار الناس عليه جادل عن نفسه وأوضح حجته . والأدب فيما أحسب يؤثر فيه الاستطراف، فقد يغير الشاعر أسلوبا طال عليه العهد وملّه الناس ، وقد يرجع الناس الى الاسلوب المهجور بعد حين فيستطرفونه . فالتغيير فى الادب واسع المجال ولكن ينبغى أن تحس الحاجة اليه وتستبين سبله .

الأدب العربى تقلب فى أطوار مختلفة، وابتدعت فيه بدع كثيرة ولكن لم نسمع ان المبتدعين مهدوا لابتداعهم بمعركة كلامية فى القديم والجديد . نظم ابن المعتز موشحه، وافتن المغاربة فى الموشحات افتنانا خرج بها عن الاوزان والقوافى المألوفة ، ومضى الناس على هذا ولم يمهد لهذا الابتداع بثرثرة فى التجديد ، ولم يكن للمجددين من حجة الا أن ألقوا الى الناس موشحاتهم تحتج لنفسها . وكذلك نظمت قصص كليلة ودمنة وغيرها فى القافية المزدوجة، ولم يكن هذا معروفا من قبل، وكتب بديع الزمان الهمذانى مقاماته وهى طريقة جديدة، وما عرفنا أن تقدم هذا وذاك جدال أجوف ذو دوى كالذى نسمعه فى هذا العهد. والمتنبي ذهب فى الشعر المذهب الذى ارتضاه ثم قال :

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر القوم جراها ويختصم

المعرى ملأ شعره بالفلسفة وأمور لم يألفها الشعر من قبل وكتب رسالة الغفران على غير مثال فما دعا الى طريقته ولا جادل فيها أحداً

وما أحسب لامرتين الشاعر الفرنسى حين نشر «التأملات» (١) قد أجهد نفسه فى الدفاع عن نفسه ، والهجوم على مخالفيه. هذه هى الطريقة المثلى التى تجنبنا المعارك الضالة والكلام المتهاتر ، والحجج المبهمة ، حين يدور الجدل على أمر مشهود بين عمد الكلام ، ويقصر النزاع ، ثم يكون المثال الجديد حجة لنفسه تسد السبل على المعاندين والمغالطين . هذه هى الطريقة المثلى. وأما الجعجعة بغير طحن، أو الجعجعة فى طحن الكلام، وإثارة الخصام فجناية على القارئين ، ومضلة للباحثين .

انما يكثر تحدث الانسان عن صحته حين يعتل، وأما الصحيح القوى فهو عامل جاهد، ماض فى سبيله لا يقيس كل خطوة بنصح الأطباء، ولا يزن كل أكلة بما أعطى من الدواء . وكذلك أعجز الناس عن الابتكار والاتقان أكثرهم ضوضاء وصخباً وسخرية وافتراء وادعاء

(١) Les Miditations

أعود الى مقال الأستاذ احمد امين ، بعد أن ند القلم فى الكلام عن التجديد والمجددين ، وأترك للاستاذ المقدمة التى ذكر فيها « العناصر الثابتة » فى الأدب و« العناصر المتغيرة» وأتصدى لكلامه فى تجديد الألفاظ. هو يرى أن التجديد فيها على ضربين: الأول «اختيار الالفاظ التى تناسب العصر، ويرضاها ذوق الجيل الحاضر » وضرب الاستاذ مثلا كلمة هبيخ وبعاق وكنهور . وأنا لا أريد أن أناقش الاستاذ فى الامثلة فقد قرأنا فى كتبنا القديمة أن « المناقشة فى المثال ليست من دأب المحصلين » ولكنى أخالفه فيما سماه ذوق العصر وأعرض نفسى لحكمه حين يقول : « وهذا بديهى لا يحتاج الى إطالة . وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديباً » أخالفه فى أن يجعل الذوق حكما ولا سيما ذوق الجيل الحاضر على قصوره فى اللغة والادب . وأخشى أن يقتصر هذا الذوق على ما ألف من الكلمات فيعد كل كلمة غير مألوفة نابية عن الذوق ثقيلة على السمع ، فاذا أراد كاتب أن يدل على الهواء بين السماء والارض فقال « السكاك » أو «السمهى» ضحك منه أهل الذوق . وإذا أراد ان يدل على الهواء بين جبلين فقال « النفنف» سخروا منه، واذا قال صفقت الباب وأجفته بمعنى أتممت اغلاقه أو تركت فيه فرجة «رجلته» اشمأز الذين لم يسمعوا بهذه الكلمات، على أن البيان فى حاجة اليها . ان الذوق يسقم ويصح. والاديب النابغة يستملى فطرته فيلائم الذوق العام أو يسيره حيث يشاء ولا يقف نفسه أسيرا تتصرف به الاذواق .

ان أمر الألفاظ أجل وأخطر من أن يحكم فيه الذوق وحده . ان الحاجة خلاقة الالفاظ ومبقيتها، والحاجة لا تبالى بالاذواق . فعلى كل أمة وكل جيل أن يأخذ من لغته الالفاظ التى يحتاج اليها ويخلق الالفاظ التى لا يجدها، غير مبال بالغرابة أو الثقل الذى يبدو أول الامر، فان الاستعمال جدير باستئناس الكلمة والملاءمة بينها وبين أذواق الناس . وكم من كلمة أجنبية ثقيلة استعملها الناس فألفوها، ولم يجادلوا فيها. فبعض كتابنا يقول البروباجندا والديمقراطية والارستقراطية والميتافيزيقية على بعدها عن طبيعة لغتنا وأوزانها ، أنا أعرف أن القدماء من أدبائنا غلوا فى الظرف وأخذوا على المتنبي وغيره كلمات سموها نابية أو حوشية . وقد تجلى هذا الظرف فى كتاب المثل السائر وغيره ولكن هذه الرقة لا يقام لها وزن عند الحاجة الملحة . بعض ألفاظ اللغة محاكاة الأصوات، وبعضها فيما أظن ، تخيل المعانى فى الأصوات : حاكت اللغة صوت الريح والرعد والطير وأنواع الحيوان ونحوها ومثلت المعانى الاخرى

فى ألفاظ تلائمها - فليس لنا أن ننفر من الالفاظ الشديدة ونتجنبها إن أردنا أن ندل على المعانى الشديدة . فالعقنقل والحقف والكثيب والجلمود وأشباهها ملائمة لمعانيها، ولا بد من استعمالها لندل على هذه المعانى. ولكن الذوق الحاضر يؤثر الألفاظ اللينة الخفيفة الجرس المألوفة،ويترك مثل هذه الألفاظ على شدة الحاجة اليها . ينبغى أن تؤثر الالفاظ القوية الشديدة لمعانيها، والالفاظ الخفيفة لمعانيها، دون إنصات الى حكم الأذواق، بل ينبغى أن يعمل الأديب لاحياء الالفاظ الطبيعية الشديدة كلما نزعت بالأمة رخاوة الحضارة الى نسيانها ،وينبغي أن تعالج اللغات بالألفاظ القوية التى تبدو ثقيلة غير مألوفة، كما يعالج ترف الحضارة بضروب السياحات والرياضات الشاقة . والاستعمال جدير بتذليل كل صعب ، واستئناس كل وحشى. يجب أن يحكم موضوع الكلام لاذوق المترفين . فالشاعر فى القاهرة أو باريس اذا وصف الجبال أو الحروب ، وهى بعيدة من إلفه ، ساغ له أن يأتى بالألفاظ التى تثير الروعة والهيبة . ان اللغات العامية فى البلاد العربية نتيجة الأذواق المختلفة، ولغة الأدب الموحدة فى هذه البلاد نتيجة مقاومة هذه الأذواق بالتعليم، ورفعها الى مستوى أرفع وأقوم .

أضرب للاستاذ الفاضل مثلا قول مسلم بن الوليد فى وصف الصحراء

وجهل كاطراد السيف محتجز
عن الادلاء مسجور الصياخيد
تمشى الرياح به حسرى مولهة
حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

مارأيه فى « مسجور الصياخيد» و« أكناف الجلاميد»؟ أهى ملائمة لذوق الجيل الحاضر ؟ وهل يرى غيرها أجدر بمكانها فى هذا الشعر ؟ انها لاريب حسنة فى موقعها، بالغة ماأريد بها من وصف الصحراء حين تشتعل فيها الهواجر. فان كان علم الجيل الحاضر باللغة ينفر به عن أمثال هذه الكلمة فليس على الكاتب أن يتحرز عنها، ولكن على الناس أن يألفوها . ثم ماذا يرى الاستاذ فى قول ابن هانئ الأندلسى :

لخياضهم من كل مهجة خالع
وخيامهم من كل لبدة قسور
من كل أهرت كالح ذى لبدة
او كل أبيض واضح ذى مغفر
طردوا الأوابد فى الفدافد طردهم
للأعوجية فى مجال العثير

ماذا يرى إن كان جهل جيلنا الحاضر باللغة ينفر بذوقه من قسور وأهرت والأوابد والفدافد والاعوجية .وهل ينبغى أن يهجر قول الشريف الرضى :

من القوم حلوا بالربى وأمدهم
قديم المساعى والعلاء القدامس
تحلهم دار العدو شفارهم
وترعيهم الأرض القنى المداعس
بهاليل أزوال ، بكل قبيلة
ملاذع من نيرانهم ومقابس

أو ينبغى أن يهجر ذوق الجيل الحاضر إن نفر من مثل هذا الشعر ؟

أرى أن حاجة الكتاب الى الابانة والاعراب والابداع تسوغ لهم أن يتخيروا من اللغة مايشاءون، ويطبعوا ذوق الأمة كما يبتغون ، وأرى أن الذوق ربما يكون وليد الجهل وفساد الطبع ، والاستكانة الى كل هين يسير ، والركون الى كل سفساف مبتذل .

للذوق الحكم حين يتسع العلم باللغة والادب، وتعرض ألفاظ عدة لمعنى واحد فيختار الذوق واحداً منها . وللاختيار أسباب كثيرة، فقد يختار «هبيخ وبعاق وكنهور »وقد يختار غيرها. وانما الفظاظة والثقل أن يعمد الكاتب الى كلمات غير مألوفة فيؤثرها على المألوف إغرابا وتعمقا وشذوذا ومخالفة للذوق دون جدوى .

ثم يقول الاستاذ: « لذلك أصبحت فى معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف فى دار الآثار » وأنا أقول بعد الذى قدمت : ما أشد حاجتنا الى كثير من هذه الالفاظ المهجورة، فانها مجدية على من يعرفها ويستعملها . وعسى أن تصير ملائمة لذوق الجيل الحاضر حين يعرفها فيقضى بها حاجته من الابانة عما يريد .

ربما يقول الاستاذ بعد قراءة هذه الكلمة . ان الذوق فى رأيى هو الذوق الذى تخلقه الحاجة والمعرفة والتمكن من اللغة والادب ، وبلوغ الغاية مما نريد لا الذوق الذى يكون على العلات فى كل حين . فان يكن هذا الذى أراده أستاذنا فقد شرحته وبينته وبررت بوعدى حين لقيته فقلت :«سأنقد مقالك أو أشرحه . وأما مقال الاستاذ الثانى وهو أجدر بالمجادلة فوعدنا بنقده « الرسالة الآتية »

روح الاســــــلام

للدكتور محمد عوض محمد

منذ سنوات كنت اطلب العلم فى جامعة لفربول . . .

وفى ذلك الزمن كنت قدعاهدت نفسى وعصبة من الرفقاء، منذ نزلنا بلاد الانكليز على ألا نألو جهداً فى افهام القوم أمر بلادنا ، واطلاعهم على مالنا من تاريخ مجيد وثقافة جليلة . فكنا نرحب بكل من جاء يستطلع منا خبرا ، أو يستفتينا فى أمر يمت الى الشرق بسبب .

وفى يوم من أيام الشتاء، بعد انصرافى من إحدى المحاضرات، ابتدرتنى طالبة من الطالبات بالسؤال الآتى : هل تستطيع أن تخبرنى فى كلمة واحدة أو فى كلمات قلائل ماروح الاسلام ؟ أدهشنى السؤال لأول وهلة ، ونظرت الى السائلة نظرة الحائر المستفسر . فأدركت أن فى السؤال شيئا من الغموض.

فقالت : « إننا - مثلا - نرى أن روح المسيحية يتمثل فى لفظ واحد وهو الحب . فهذا هو لب لباب ديننا ، والاساس الذى شيدت عليه صروح المسيحية كلها . فما من عقيدة ولا شعائر ولا تعاليم . الا والحب محورها الذى تدور حوله . ولا تكترث لما قد تراه مخالفا لذلك فما هو من المسيحية فى شىء .»

فقلت : « إنك اذن تريدين منى كلمة واحدة أو كلمات قلائل ، تكون من الاسلام بمثابة كلمة الحب من المسيحية ؟ .»

فقالت : « أجل فقد يكون روح الاسلام مثلا العدل أو القوة . . »

فأطرقت قليلا ، وأنا أمعن فى التفكير ، لعلى أهتدى الى جواب ترضاه وأرضاه . وخطر لى أن أشرح لها أن للاسلام أركانا خمسة . . لكنى ذكرت أن فى المسيحية ايضا صلاة وصياما . وخشيت أن تقول لى إن هذا من الدين بمثابة الجسم وأنها تبحث عن الروح .

قلت لها فى صراحة : « إنى ماخطر لى يوما أن ابحث عن كلمة واحدة تؤدى كل ذلك المعنى الجليل الخطير . . وأنتم معشر الانكليز قوم تحبون تبسيط كل مسألة . . ومع هذا أمهلينى أتدبر الأمر ، أو أسأل أهل الذكر . فلا خير فى جواب عاجل لاينطوى على الصواب .»

***

فى مساء ذلك اليوم جلست فى حجرتى مطرقا ، مسندا رأسى على يدى ، محدقا فى مصطلى تشتعل فيه النار . كأنما كنت ألتمس الالهام من لهيبها المندلع وقبسها المضطرم . وأطفأت المصابيح كى لايلهينى عن التفكير مابالحجرة من أثاث أو صور . . .

لم أكن - علم الله - من الملمين بعلوم الدين . وكنت أحس من نفسى عجزا وقصورا ، عن معالجة تلك المسألة ، ولكنى رغم هذا رأيت أن احاول معالجتها ماأستطعت الى ذلك سبيلا . . وجعلت أجهد فكرى أيما اجهاد . وخيل لى أنى أرى أمامى سبلا كثيرة فجعلت أسلك كلامنها ، ولا أزال أتبعه الى نهايته ، ثم أعود فأسلك طريقا آخر فأجتازه الى غايته : وكانت كل خطوة تدفعنى إلى خطوة أخرى حتى أبلغ نهاية المرحلة ...

وهكذا سلكت فى تفكيرى وبحثى طرقا شتى . وعجبت إذ ألفيتنى أصل فى كل مرة إلى غاية واحدة ، ويسلمنى البحث الى شىء واحد .. فقد كان ينتهى بى التفكير دائما الى التوحيد » ...

لعل روح الاسلام إذن هو التوحيد .. وهل أرانى بلغت الغاية حين رست بى سفينة الفكر على ذلك الساحل الأمين ؟

أليس التوحيد أن يقصد الناس بجسدهم وبروحهم وجه الاله، ولا ينصرفوا عنه الى سواه ؟ والا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ؟.. وأن نرتفع بأنفسنا عن عبادة تلك الأوثان البشرية وعبادتها ذل واثم ، وهى تمثال ما بالعالم من شر ورجس ؟ أليس التوحيد هو الذى يرتفع بنا عن عبادة المال والتكالب على جمعه .. وعبادة الشهوات التى تسترقنا وتذلنا .. أليس التوحيد اذن هو الذى يعلو بأنفسنا عن كل دنىء مهين، ويرقى بنا الى سماء كلها طهر وصفاء ؟

فيم التردد إذن ؟ ان روح الاسلام هو التوحيد .

***

جالت بنفسى هذه الخواطر ، وجعلت أرددها فى صدرى مراراً فلا تزداد الا ثباتا ورسوخا. وخيل إلى انى اهتديت إلى اجابة صريحة — لا لبس فيها ولا ابهام — على السؤال الذى سئلته صباح ذلك اليوم .

وكنت أخشى الا التقى بصاحبة السؤال إلا بعد أيام ، فأردت أن ارسل اليها الجواب فى طى كتاب

فتناولت قلما وورقا ، واوقدت المصابيح ، وجعلت أسطر ما جال بخاطرى ، فى شىء من الاسهاب والتفصيل ، كى لا يبقى فى صدر القارئة ذرة من الشك فى صحة ما استقر عليه رأيى .

وأعدت تلاوة الكتاب مرارا، واطمأننت الى انه يؤدى كل ما جال بنفسي أحسن الاداء. وكنت بهذا فرحا طروبا. ثم طويت الكتاب، ونهضت لاحمله الى دار البريد.

فى تلك الساعة كان المطر ينهمل مدرارا. فجلست الى جانب النافذة انتظر عله يكف أو يسكن قليلا.. وجعلت أنظر الى خارج الدار. أتأمل الغيث اذ يتساقط على أحجار الشارع الملساء، والضباب الخفيف وقد انتشر فى سائر الارجاء. والمصابيح وهي تبدو ضئيلة فاترة خلال الضباب والغيث. وكأنها أشباح اليقين وسط دياجير الشك.

لم يطل تأملي لذلك المنظر حتى عاد بى الخاطر الى موضوع الكتاب الذى بيدى.. وانتقل بى التفكير من الاسلام الى البلاد التى تدين بالاسلام. وجعلت أنظر بعين الوهم الى تلك الأفكار، التى يفصل بينى وبينها آلاف الأميال. وأخذت ترتسم أمامى صورتها شيئاً فشيئا...

ليت شعرى ماذا فى بلاد الاسلام من روح الاسلام؟ وماذا فى بلاد التوحيد من التوحيد؟

غشيني شيء من الذهول. ورسم الوهم أمام عينى صورة مروعة مفظعة هائلة، لتلك الأقطار القاصية..

رأيت البلاد. قد حلق فوقها عقاب البغى، باسطاً عليها جناحيه، ومنشباً فيها أظفاره، وقد خضعت لسلطانه الرقاب، وعنت لخشيته الوجوه! وهلعت الأفئدة. وذلت الاعناق، ورغمت الأنوف!

وانطلقت الأفواه تسبح بحمده، وتمجده، وهو لايزداد الا بغياً وعتواً، والاعناق لاتزداد الاخشوعا وذلا.

* * *

وتبدلت الرؤيا بعد ذلك.. فأبصرت هيكلا عظيم البناء، لايبلغ الطرف مداه. ورأيت الناس منطلقين إلى ابوابه الكبيرة، ليقيموا الشعائر.. زمر تسعي إثر زمر.. جموع تتجاذب وتتدافع، ويموج بعضها فى بعض؟.. ولا تكاد الأبواب تحتويهم على سعتها...

ثم انكشف الغطاء وأبصرت مابداخل الهيكل.. فاذا أوثان هائلة، قد نصبت فى أرجاء الهيكل. ومن دون كل صنم مذبح عظيم تقدم اليه القرابين، ويحرق عنده البخور. والناس من حولها بين قائم وقاعد وركع وساجد..

نظرت ذات اليمين فاذا صنم جبار أصفر اللون، براق لامع، ماشككت فى أنه (مامون) إله النضار. إن لم تنم عنه صورته فقد نم عنه رواده وقصاده:

جنود مجندة وكتائب محتشدة. قد أقبلت على عبادته بأيد ممدودة، ووجوه تفيض شرهاً وجشعا.

وقد حمل كل عابد قربانه: هذا يقرب الشرف، وذاك يذبح الدين، والآخر يقدم الوفاء والميثاق، وذلك يقرب وطنه الذى نماه وغذاه، وصاحبه يقدم الأهل الذين انجبوه... وها هنا شخص يحرق ضميره ومبدأه بخوراً.. وهناك آخر يضحى بما لديه من عفاف وكبرياء...

وكأن ليس فى العالم شيء أعز واكبر من أن يكون قربانا لذلك الصنم الهائل الدميم. الذى كان يقبل القربان حيناً، ويزور عن عباده أحيانا، فلا يزيدهم نفوره وازوراره إلا تهالكا عليه، وغلواً فى عبادته، واكثاراً من الضحايا والقرابين...

ثم نظرت الى اطراف الهيكل، فابصرت جموعاً أخرى عاكفة على أوثان اخر: ها هنا إله الشهوات وقد احتشدت عبيده من حوله. وهنالك وثن المناصب والجاه والناس من حوله ركع سجود... وفى هذه الناحية وتلك شكول وضروب من أصنام يكاد يخطئها العد، ويعجز عنها الوصف.

***

وألفيت نفسى بعد قليل أتنفس الصعداء، وقد انجابت عن عينى تلك الرؤيا، ولم يبق أمام ناظرى سوى الغيث المنهمر، والضباب المنتشر، وضوء المصابيح الضئيلة.

ولبثت برهة واجماً ساكنا: وقد امتلأت نفسى حزنا وغما....

ثم نهضت ببطء شديد، وأغلقت النافذة وأسدلت الستر. وعدت الى مجلسى بجانب الموقد...

وأمسكت بيد مرتجفة ذلك الكتاب الذى تعبت فى تسطيره وتحبيره...

وبيد مرتجفة القيت به فى النار... وجعلت أحدق فيه إذ يحور لهيبا ودخانا...

وأحسست بقطرات تنحدر على خدى.. فتناولت منديلي ومسحتها... ولعلها من قطرات ذلك الغيث أصابت وجهي وأنا جالس لدى النافذة!

* * *

أنبيت الفتاة بعد أيام إذ أعادت السؤال فقلت لها ان كان روح النصرانية الحب، فان روح الاسلام التوحيد.

الشعر والحياة الحديثة (١)

لشاعر الهند رابندرانات تاغور

يعيش العالم الآن فى عصر ثورة . فاعتقاده القديم وميله حتى نفوره فى تغير وتبدل . ولم يشهد التاريخ تطوراً أصابه من التقلبات السريعة المفاجئة ما أصاب هذا التطور البادى فى عقلية الجماعة والفرد . فالأخلاق تختلف ، والآراء تتغاير ، والاعتقادات تتباين . والجيل الجديد قد دفعته الرغبة الملحة الى تجربة كل شئ فى الحياة حتى نسى فن الحياة ، فلا يملك الوقت للتفكير والتأمل ، ولا يجد الفراغ للسرور الهادئ يمتع به نفسه ، ولا الفرصة للقراءة يغذى بها روحه ، وشدة الزمان وعنف الجهاد لا يسمحان لامرىء أن يفاكه شيئاً لا ارادة فيه ولا ثمرة ، لذلك كان فن الشعر أبعد ما يكون عن الازدهار والانتشار . فالشعراء قليلون ، وروائع الشعر نادرة ، لأن طبيعة العصر تقتضى ذلك .

أنا لا أزعم انى أفهم ميول العصر ، ولكنى أسجل ما عليه الشعر العصرى من حاضر سيىء وحال أليمة . ليكن السبب فى ذلك متصلا بأى صورة من الصور بالحرب وأثرها فى نفوس الشعوب التى صليت بنارها — وذلك مالا أجرؤ على تأييده — فان الامر الواقع أن ازدهار الشعر فى هذه الساعة من أصعب الامور

ومما لاشك فيه أن الناس لا يجدون لثقافة الشعر فراغا تركه السينما الناطق وموسيقى الجاز وذلك الحرص على أن يزدردوا فى أربع وعشرين ساعة مقداراً من التجارب والاختراعات والاحساسات كان يغذى آباءنا الاولين شهوراً عدة

على أن هذه الحال من الظواهر الطارئة التى لا تلبث أن تزول ، فان فى الانسان جزءاً جوهريا يقتضى الشعر ويتطلبه . أما وقت زوالها فذلك ما أجهله ، ولكنه على أية حال لا يكون اليوم ، لان الناس أصبحوا غير أهل لتقدير العمل الفنى ، واذا استطاع المسافر فى قطار سريع أن يحسن التقدير لمنظر من المناظر ، استطاع الرجل الذى يحيا هذه الحياة المحمومة أن يزن الحكم على قصيدة من القصائد . أن للحياة نسقا موزونا إذا أعجلته فى حركته عرض الوجود كله للخطر . وقد نسى رجال اليوم ذلك فاصبحوا يركمون الاحساس فوق الاحساس دون استمتاع ولا تذوق ، كالأكول الشره يبتلع اللقمة أثر اللقمة دون استمراء ولا مضغ ففاتهم بذلك خير ما فى الحياة ! تلك هى الحال الغالبة على كل شىء .

ويريبنى الشك فى أن مثل هذه الحال توفى بالانسانية الى السعادة حتى ولو حققت لها النجاح المادى ، لأن هذا النجاح لا يعدو أن يصبح كل انسان قادرا على اكتساب ثروة تضمن له ترف العيش ، وتنوع له صور الحياة ، ولكن الواقع أن عبادة السرعة التى احتلت المشاعر وغلبت على الاذهان تستفرغ جهد المرء فى تبريزه على جاره وأخذه المهلة على منافسه ، والسرعة وأن بلغت بالناس بعض النجاح لا تستطيع على ما أظن ان تجدى عليهم جمال الحياة ورخاء الصدر . فالجيل الناشىء قد جنى من وراء السرعة معرفة واسعة بالاشياء وخبرة عظيمة بالامور ، ولكنه على وشك أن يفقد حساسيته ، ويوشك هذا الميل الى الافراط أن يطغى على العالم باسره ، لان انتقال الافكار من قطر الى قطر لم يكن فى زمن من الازمان أسرع منه الآن ، ولقد راعنى سريان هذا الداء الى شرق الهند بسرعة غريبة . فمنذ قليل كان فى البنغال جمهور عظيم قد سلم شعوره من شر الاخلاق ، فكان عباد الجمال من شعراء الشباب موضع اجلالهم وتقديرهم ، ودواوين شعرهم مصدرا لغبطتهم وسرورهم ، ولكن الهنود اليوم قد اخذوا باسباب الحياة الحديثة وهى كما قلت شر على الشعر وحائل دون ازدهاره

يزعم فريق من الناس ان تأخر الشعر نتيجة لتقدم العلوم فى الثلاثين أو الاربعين سنة الأخيرة وزعمهم هذا باطل ، فان نفاق العلم لا يستلزم حتما كساد الشعر .

وانما الخطر الحقيقى الوحيد هو أن الناس فى خلال هذه الرجات الاجتماعية الحديثة يصبحون عاجزين عن ترجمة الخواطر بالشعر ، قاصرين عن إدراك الجمال فى القصيد ، وذلك ولا ريب عرض من أعراض الهرم . ومثل هذا العرض لا يظهر فى الشعوب الشابة لان حاسة الشعر خصيصة من خصائص الشباب . على أن هذه الحاسة يفقدها المرء بسهولة اذا لم يساعدها بالثقافة والمران ، ومتى فقدها فقد معها نضرة العيش وجمال الحياة .

(١) نشرها بالفرنسية السقيمة فى عدد ابريل من مجلة (لموا)

حافظ وشوقى

للدكتور طه حسين

ظهر هذا الكتاب القيم حديثاً وهو مجموعة ما أنشأه الدكتور فى هذا الموضوع الطريف . طبع طبعاً حسناً على ورق صقيل فى زهاء ٢٥٠ صفحة . يباع فى المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد . وثمنه ١٠ قروش .

فلســـــفة التاريخ

مقدمة

الفلسفة هى محاولة إيجاد قانون واحد شامل ينتظم الكون بأسره وتخضع له جميع الحوادث فالعلوم تبحث عن الجزئيات والفيلسوف يستخرج من جزئيات العلم كليات الفلسفة

وقد حاول الكثيرون أن يبحثوا فى التاريخ من ناحيته الفلسفية وكدوا أذهانهم فى البحث عن سبب واحد يعللون به جميع حوادث التاريخ وتطوراته من يوم ولد الى يوم يموت فوصلوا الى نتائج مختلفة وأسباب متشعبة .

التفسير الاقتصادى للتاريخ

كان من بين النظريات التى اهتدى اليها البحث نظرية « التفسير الاقتصادى للتاريخ » ومن أكبر دعاتها الفيلسوف الاشتراكى كارل ماركس . وخلاصة هذه النظرية ان العوامل الاقتصادية والاغراض المادية كانت دائما الدافع الأول والمباشر لكل حوادث التاريخ فالانسان الأول لم يلجأ الى تكوين الجماعات الا ليسهل على نفسه سبل العيش، والجماعات لم تنقسم الى دول وشعوب إلا لاختلاف مصالحها الاقتصادية ونشوء الدول وتطورها وسقوطها يرجع الى أسباب اقتصادية بحتة والحروب والغزوات والهجرات لم تقم إلا على أسباب مادية خالصة .

ولاصحاب هذه النظرية شواهد تاريخية كثيرة تسند رأيهم وتعزز قولهم فالانقلاب الصناعى الذى حدث فى أوروبا فى القرن الثامن عشر كان له اكبر الاثر فى تطور الشعور الدينى عند مختلف الطبقات، وقد انتهى بضعف النزعة الدينية وتقوية شوكة الالحاد . والحرب الاوربية الكبرى سنة ١٩١٤ اقرب مثال لتأثير التطور الاقتصادى فى تيار السياسة ومجراها . خرج الرجال الى ميادين القتال فبرز النساء الى ميادين العمل يملأن المصانع بأيديهن العاملة ويقمن بالحركة التجارية على اكمل وجه وقد قل بذلك اعتماد المرأة على الرجل، وتغير موقفها الاقتصادى نحوه فطالبت بحق التصويت . وسرعان ما احتلت مقعدا بين النواب بل وارتقت الى كرسى الوزارة . وقد كان لهذا الانقلاب الذى طرأ على مركز المرأة الاجتماعى اثر كبير فى تغيير القوانين والآداب والفنون وجميع المرافق الاخرى التى قد تبدو عديمة لاتصال بالحالة الاقتصادية . وهكذا تم تحرير المرأة عند ما قل اعتمادها الاقتصادى على الرجل ولم تكن لتحصل على هذه الحرية بتأثير كتابات أفلاطون وجون استيوارت مل وغيرهما ممن ذاد عن حرية المرأة ودافع عن كرامتها . وكانت الطهارة والعفاف من فضائل المرأة الكبرى التى فرضها عليها الرجل حينما كانت تعتمد عليه اقتصاديا، وكان تفريطها فى عرضها جريمة كبرى فى نظر الرجل لا تقاس بها جرائمه التى يرتكبها فى هذا الاتجاه مهما كانت جليلة خطيرة، فلما تحررت المرأة قلت مسئوليتها عن عفافها وكادت تساوى مسئولية الرجل .

والواقع أن كثيرا من آدابنا العامة وفلسفاتنا الخاصة يخضع لتأثير العوامل الاقتصادية كل الخضوع فالقناعة والرضا بالامر الواقع والتواضع والخنوع فضائل ارتآها الأغنياء للفقراء وفرضوها عليهم فرضا فاتخذها هؤلاء على مر السنين مبادىء ثابتة لهم تحت تأثير سلطة الاغنياء وبدافع ما يسميه ماكدوجل « الشعور بالذات السلبى » Negative self-feeling وهو شعور عكسى يدفع المرء لا الى التغلب على غيره بل ان الاستكانة والخضوع .

التفسير المادى للتاريخ

ومن الباحثين من كان تحت تأثير الفلسفة المادية فأرجع التاريخ الى أسباب مادية، وان تكن غير اقتصادية (والمادية فى الفلسفة معناها ان جميع ظواهر العقل والفكر إما طبيعية أو ترجع الى أسباب طبيعية) ومن هؤلاء بكل Buckle الذى يقرر أن المناخ هو العامل الاكبر فى تقلبات الحوادث فالحضارات القديمة انما نشأت فى الجهات الحارة مثل مصر والهند وأشور وغيرها لسرعة نمو النباتات فى تلك البلاد وسهولة العيش تبعا لذلك وكلما ارتقى الانسان فى سلم التطور انتقلت مراكز حضارته الى البلاد الباردة . ويعزز ذلك سير المدنية شمالا من مصر الى بلاد اليونان والرومان الى أواسط أوربا الى انجلترا والسويد والنرويج حيث هى اليوم . ومن هؤلاء أيضا فرود Freud الذى يرى أن العلاقات الجنسية هى أساس كل ما يصدر عن الانسان من حركات واعمال .

فنحن اذن نستطيع أن ننظر الى التاريخ من عدة نواح مادية (أى طبيعية) ولكنها ليست اقتصادية ولا تتفق مع تفسير ماركس للتاريخ . ونظرية التفسير المادى للتاريخ تختلف إذن كل الاختلاف عن المادية فى الفلسفة ولا بد من فصل الواحدة عن الاخرى .

العواطف وأثرها فى التاريخ

رغماعما للعوامل الاقتصادية والاسباب المادية التى ذكرناها من الاهمية العظمى فى تكييف السياسة وتحديد معتقدات شعب من الشعوب أو جيل من الاجيال فاننا لا يمكننا أن نتجاهل بعض العوامل الاخرى التى كان لها اكبر الاثر فى تاريخ الانسان وحياته العامة .

(أ) وأشد هذه العوامل وضوحا واكثرها اهمالا من جانب الاشتراكيين اتباع كارل ماركس عامل القومية ، فكثيراً ما تعارضت القومية مع المصلحة الاقتصادية وتغلبت عليها فتريستا مثلا كانت تعد نفسها قبل الحرب العظمى ايطالية مع ان مصلحتها الاقتصادية كميناء تتوقف على تبعيتها للنمسا، ولكن نظراً لان اكثر سكانها من الايطاليين فقد كانت تضحي بفائدتها المادية فى سبيل اشباع شعورها القومى . كما ان انفصال دول البلقان واستقلالها عن بعضها قد أدى الى ضعفها الاقتصادى ومع ذلك فقد تم هذا الانفصال تحت تأثير عوامل عاطفية قومية بحتة .

وقد كان العمال اثناء الحرب العظمى يسيرون مندفعين وراء شعورهم القومى متناسين رأيهم الاشتراكى الذى كانوا ينادون به « يجب أن يتحد العمال فى جميع أنحاء العالم » تجاهل العمال هذا المبدأ حيناً، ووقفوا فى ميدان القتال وجهاً لوجه للمحافظة على حدود الوطن وتلبية لداعى القومية . وقد يعترض أصحاب فكرة التفسير الاقتصادى على ذلك فيقولون، ان العمال كانوا يستمعون فى هذا القتال لنداء أصحاب رءوس الأموال الذين رأوا فى الحرب فرصة للصيد فى الماء العكر ، وتكديس الارباح والمكاسب ولكننا لانقيم لهذا الاعتراض وزنا اذا عرفنا أن كثيراً من الرأسماليين هووا الى الافلاس أثناء الحرب .

(ب) ومن العوامل ذات الأثر البين فى التاريخ المنافسة وحب السيطرة . فالمنافسة التجارية بين انجلترا والمانيا كانت سبباً هاماً فى نشوب الحرب الكبرى، والمنافسة كما نعلم غريزة من غرائز الانسان المتعددة تظهر بأشكال مختلفة وقد كان هذا الوجه الاقتصادى الذى ظهرت به قبيل الحرب أحد هذه الاشكال فلا يمكننا اذن أن نعد هذا السبب من أسباب الحرب من بين العوامل الاقتصادية فقد كان بوسع أصحاب الاموال من انجليز والمان أن يتحدوا ويتعاونوا فيجنوا من وراء ذلك الارباح الطائلة، ولكن غريزة المنافسة غلبت عليهم فتجاهلوا مصلحتهم الاقتصادية واندفعوا وراء غرائزهم الوحشية .

هذا وقد دفعت غريزة السيطرة وحب القوة الاسكندر وقيصر ونابليون وغيرهم الى تملك ناصية العالم، ولم يكن هؤلاء الرجال يرمون الى زيادة ثروتهم وممتلكاتهم، وإنما كانوا يشبعون غرائزهم ويبذلون أرواحهم فى سبيل منافسة خصومهم والتغلب عليهم ، حتى أن الدنيا لو خلت من خصم لهم لتلمسوا المعاذير وخلقوا أسباب الخصومة خلقاً، جريا وراء النصر وحب التغلب!

وكيف يمكننا أن نتجاهل العاطفة الدينية وما كان لها من أثر فى حروب دموية طويلة عند ظهور الاسلام وبين المسلمين والصليبيين . وكثيراً ما اتحدت الجماعات المختلفة بتأثير العامل الدينى رغم ما كان بينها من فوارق اقتصادية وإنا لنجد العامل الكاثوليكى فى أوروبا يصوت لرأسمالى كاثوليكى ولا يصوت لاشتراكى ملحد، رغم اتفاقه وإياه فى آرائه الاقتصادية فطبقة العمال تنظر الى رفع عماد الدين قبل أن تنظر الى تحسين حالتها المعيشية .

الفلسفة وأثرها فى التاريخ

وكثيراً ما كانت لآراء الفلاسفة نتائج عملية فى توجيه السياسة وليس أدل على ذلك مما كان لتعاليم روسو من أثر قوى فى مجرى السياسة العالمية، مما أدى إلى قيام الثورة الفرنسية وما استتبعها من تطورات كما أدى إلى مناداة الولايات المتحدة بحريتها ومطالبتها باستقلالها.

علم النفس وضرورته لتفسير التاريخ

واخيراً فان التاريخ يحتاج كما تحتاج جميع مظاهر الحياة الى معونة علم النفس لتفسيره وتحليل أسبابه وقد أظهرت المباحث الحديثة فى هذا العلم أن الأعمال التى ترتكز على أساس من العقل والفكر ليست الا قطرة حقيرة فى خضم الاعمال التى تنبعث عن اللاشعور متأثرة بأسباب غير معقولة وكثيرا ما تسير وجه التاريخ لأسباب مجهولة نبعت عن دوافع لاشعورية عند بعض الزعماء وعظماء الرجال، ولكن ماركس كان متأثرا بآراء علماء النفس فى القرن الثامن عشر حينما كان يبحث عن أسباب معقولة يفسر بها حوادث التاريخ فهداه البحث الى العامل الاقتصادى وعليه بنى نظريته فى الاشتراكية زعما منه أن المساواة الاقتصادية تدعو الى ايقاف التطاحن والحرب بين البشر.

محمود محمود محمد
ليسانسيه فى التربية والتاريخ

نشأة المدنيـــــــة

للاستاذ زكى نجيب محمود

كان راسخا فى الأذهان الى عهد قريب أن دراسة التاريخ بعيدة كل البعد عن دقة العلوم الطبيعية ، ذات القوانين الثابتة المطردة ، من حيث طريقة البحث ، وانتزاع الاحكام الكلية من الأمثلة الجزئية ، لانه رواية لاعمال الانسان وسلوكه فرداً ومجتمعاً ، وعلى ذلك فهو لايخضع لقانون دقيق ، كما تخضع العلوم الرياضية مثلا ، مادامت اعمال الانسان نفسها لاتطرد ولا تستقيم مع قانون خاص ، وبناء على تلك العقيدة الراسخة ، لم يحاول مؤرخ فى العصور الماضية ـ فيما نعلم ـ أن يستنبط من شتيت الاخبار التى يرويها التاريخ قانونا عاما ينتظم الجماعة الانسانية ، كما استنبط الرياضيون من مختلف المظاهر الكونية مجموعة القوانين اليقينية التى لايجد الشك اليها سبيلا .

ولكن دراسة التاريخ أخذت تخطو فى العصر الحديث خطوات واسعة نحو الدقة العلمية واستخلاص القوانين العامة من الجزئيات التى تزخر بها بطون المجلدات . ومن أدق ماقرأنا فى هذا الموضوع ، ما كتبه توماس بكل ، المؤرخ المعروف ، الذى حاول فى كتابه « تاريخ المدنيــة فى انجلترا » أن يخضع النشاط الانسانى ، الذى يبدو فى احداث التاريخ المختلفة ، الى نواميس ثابتة دقيقة ، كالعلوم الطبيعية سواء بسواء ، وكأنى به قد وضع المجموعة البشرية فى مخبار وأخذ يضيف اليها من المواد ألوانا مختلفة ، حتى انتهى به البحث الى تلك النتائج القيمة التى دونها فى كتابه المذكور .

وسنحاول فى هذا البحث أن نحلل العوامل الاساسية ، والقوانين العامة ، التى أنتجت المدنية الانسانية من أحضان الهمجية الأولى ، لانها لم تنشأ حيث نشأت اعتباطا وعن طريق الصدفة العمياء ، ولكنها نتائج محتومة لمقدمات طبيعية .

ولكن ماهى هذه المدنية التى نحاول أن نتتبع أسباب نشأتها ؟ أليس جديراً بنا ان نلم المامة سريعة بمعناها أولا ، حتى يقوم البحث على دعامة قوية وأساس متين ؟ نعم ، ولكن دون ذلك البحوث المستفيضة وليس هذا المقال القصير مجالا لهذا البحث المتشعب الأطراف ، والذى لاأحسب موضوعا بلغ فيه الخلاف بين الباحثين من الشدة والاتساع مابلغه فى هذا الموضوع ، وأذكر أنى قرات ملاحظة طريفة أوردها الكاتب « الانجليزى هافلوك اليس » فى مقال كتبه عن المدنية ، حيث يقول عن هذه الكلمة انها لم ترد فى دائرة المعارف التى وضعها جماعة الانسيكلو بيديين لكثرة مايقوم حول تعريفها من خلاف .

ولكن مهما يكن من أمر ذلك الخلاف فى مدلول المدنية ، الذى منشؤه تباين وجهات النظر للحياة ، فان أحداً لا ينكر أنها تعتمد فى تقدمها بوجه عام على تقدم العلوم والمعارف أكثر من أى شىء آخر ، وأكاد أقول فى شىء من اليقين إنها عبارة عن كمية المعارف التى وصل اليها الانسان ، لاأكثر ولا أقل ، على الرغم من تلك الدعوى التى لايؤيدها منطق ولاتاريخ . والتى يأخذ بها بعض المفكرين فى كثير من النعرة الواهية ، وهى أن المدنية رهينة بتقدم الأخلاق وحدها ، ويكفى أن تلقى نظرة عجلى الى تاريخ الانسانية منذ فجرها حتى الآن ، لتعلم أن الأخلاق فى العصور الاولى هى هى الأخلاق فى العصر الحاضر ، لم تتقدم إلا بمقدار ضئيل جداً لايكاد يذكر ، فلا يزال الصدق محمودا والكذب مرذولا ، ولا تزال الأمانة خيراً والخيانة شراً ... وأما العلوم فهى تسير كل يوم ، إن لم يكن كل ساعة سيراً حثيثاً الى الامام .

يتضح من هذا أن المدنية فى جوهرها عبارة عن المعارف الانسانية ، فاذا ما أردنا أن نبحث عن الأسباب التى أدت الى نشأة المدنية ، فلنبحث عن نشأة العلوم ، مادامنا صنوين متلازمين ، أو بعبارة أدق لانهما شىء واحد .

حاول أن تصور لنفسك الجماعة الانسانية فى فجر التاريخ ، فترى انسانا لا يملك من الأدوات التى يستعين بها فى عمله الشاق شيئا ، ترى انسانا يعمل بيده كل شىء ، لا يكاد يستيقظ من نومه حتى يمشى فى مناكب الارض سعياً وراء قوته من نبات وحيوان ، ويظل فى هذا السعى حتى يغشاه الليل بظلمته ، فيركن الى كهف يأوى اليه مهدود الجسد ، فيستغرق فى النعاس حتى تشرق عليه الشمس كرة أخرى ، فينهض من مخدعه ليعيد فى يومه سعى أمسه .

فهذا الذى يستنفد نهاره فى الحصول على قوته وسائر ما تقتضيه الحياة من شئون ، ويقضى ليله فى جوف الكهف نائما ، لايكون لديه من الفراغ مايمكنه من التفكير فى خلق السماوات والارض ، والتفكير أولى مراحل العلم ، وإذن فالعلوم كامنة فى ثنايا العدم ، ولا يكتب لها الظهور الى ضوء الوجود إلا إذا تبدلت الحياة غير الحياة والانسان ، فتتوفر لجماعة انسانية بيئة

تساعدها على انتاج محصول يزيد على طعام يومها ، حتى يتكون فيض انتاجي لايلبث أن يتجمع عند أفراد قليلين ، هم الاقوياء عادة ، وبذلك يستطيع ذلك النفر القوى أن يتخلص من المجهود الذى كان يبذله لتحصيل ضرورات الحياة ، وإذن فقد يتمتع بالفراغ الذى لابد أن يستتبع التفكير فى مظاهر الكون ، وهذا التفكير هو النواة الأولى للعلوم والمعارف المختلفة .

يتضح مما سبق أن الشرط الأول لنشأة العلوم — وبالتالى المدنية — هو خصوبة التربة . الذى يؤدى الى وفرة الانتاج بما يزيد على حاجة الاستهلاك ، وأمثلة ذلك كثيرة فى التاريخ ، فالمدنية المصرية القديمة لم تنبت فى وادى النيل إلا لخصوبة تربته ، كذلك الامة العربية كانت قبل إسلامها أقرب الى الهمجية منها إلى أى شيء آخر ، فلما جاء الاسلام ، ثم تبعه انتقال الأعراب الى الوديان الخصبة كوادى النيل ووادى دجلة والفرات ، حيث الخصب والنماء والثروة انقلب هؤلاء الأجلاف شعباً متحضراً بلغت مدنيته حداً قل أن شهد مثله التاريخ .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن المدنية الاوربية تختلف فى أسباب نشأتها عن المدنيات القديمة ، فبينما هذه تنشأ من خصوبة التربة ، نرى الاولى نتيجة لاعتدال المناخ . ولما كانت المدنيات القديمة قد تأثرت بالعوامل الطبيعية وحدها ، أعنى أنها نتيجة لتفاعل المناخ والتربة من غير أن يتدخل الانسان تقريباً ، وخصب التربة محدود الغلة مهما أجيد استغلاله فى حين أن الحضارة الاوربية لايقف فى سبيلها شئ لأنها أثر لتفاعل المناخ وذكاء الانسان الذى لا يمكن أن نتصور له حدوداً يقف عندها ، لهذا فالمدنية الاوربية أقوى أساساً وأعمق جذوراً وابعد مدى من المدنيات القديمة جميعاً .

ولكن اذا كانت المدنية فى أول أمرها — كما بينا — تابعة لخصب التربة ، حتى يتوفر من المحصول الزائد مايتجمع فيكفى فئة من الناس مؤونة العمل ، وبذلك تبدأ الطبقة العلمية فى الظهور ، فلماذا اقتصرت المدنيات على المنطقة المدارية ، حيث ظهرت فى مصر والشرق الأدنى والهند وبيرو ومكسيكو ، وكل هذه تكاد تكون على خط عرض واحد ، نقول لماذا لم تنشأ المدنية فى المنطقة الاستوائية ، مع أنها وفيرة الانتاج النباتى الذى يحقق شرط الفراغ الضرورى للتفكير ، فالعلم ، فالمدنية ؟ الجواب على ذلك سهل ميسور ، وهو أن الجهات الحارة لاتساعد الانسان على التفكير والنشاط ، بل من شأنها أن تقعده وتعجزه عن ضروب النشاط جميعا ، ومن جهة أخرى ، فان الوفرة النباتية الطبيعية ، التى ليست ثمرة العمل الانسانى ، تؤدى الى التواكل وتعمل على خمود الذهن ، لان الحاجة أم الاختراع . وليس هناك حاجة تشحذ القوى العقلية لاكتشاف أى اختراع . إذن فأنسب مكان تظهر فيه المدنية فى أول عهدها ، هو ذلك الذى يضطر الانسان الى العمل لتحصيل القوت ، والذى يكون من خصبه مايستطيع منه ان يمد الانسان بغلة تربى على حاجة الاستهلاك .

ولكن قد يعود القارىء فيعترض بقوله إن هذا المناخ المعتدل الذى يبعث الانسان على النشاط الذهنى ، وتلك الخصوبة التى توفر للانسان محصولا زائدا ، قد يتوفران فى كثير من بقاع أوروبا مثلا ، فلماذا لم تظهر المدنية فى تلك الربوع فى بادىء أمرها ؟ هنا يتقدم (بكل) فى كتابه الذى ذكرناه فى أول هذا المقال ، بتعليل دقيق يدعو الى الاعجاب واطالة النظر فهو يرى أنه لابد للمدنية فى مهدها من كثرة عدد السكان بحيث يكون التفاوت عظيما بين الطبقات ، حتي تستطيع الطبقة الحاكمة أن تتمتع بكامل السلطان المطلق على أفراد الشعب ، فلا ينازعونها فى الاستيلاء على ثمرة مجهود غيرها ، وزيادة السكان بما فيها من تفاوت الطبقات ، ميسورة فى الجهات الدافئة دون الشمالية الباردة واليك البيان :

لا ريب فى أن الانسان يدور مع الطعام وجودا وعدما فبينما تراه يتكاثف ويزدحم فى البقاع الخصيبة ، ترى الصحراوات خرابا لا يكاد يعمرها أحد ، وهكذا يتوقف عدد السكان كثرة وقلة ، على درجة خصوبة الارض ، ذلك لأنه كلما كثر الطعام كان الحصول عليه ميسوراً لكل انسان ، ومادامت غائلة الجو مأمونة الجانب ، فزيادة النسل تطرد اطرادا لا يحول دونه شىء ، والعكس صحيح . أى كلما قل الطعام وعز مناله على الفقراء ، تناقص السكان حتى يتكافأ عددهم مع ما تنتجه الأرض من محصول .

ولسنا بحاجة الى ذكر ضرورة الطعام للكائن الحى لأدائه وظيفتين هامتين لا مندوحة عنهما لحفظ الحياة : فهو الذى يحفظ حرارة الجسم ، كما أنه يعوض ما يفنى من الانسجة اثر القيام بالعمل ، ولكنا نريد أن نرتب على ذلك نتيجة لها خطرها فى موضوع بحثنا ، فمن الحقائق المعروفة أن حرارة الجسم تتولد من اتحاد أكسجين الهواء الذى تتنفسه مع كربون الطعام الذى نأكله ، فيولد هذا الاتحاد الحرارة اللازمة لحفظ كيان الانسان ، فلكى يحتفظ الجسم بحرارته ، يجب أن يناسب بين اكسجين الهواء وكربون الطعام ، أى يجب ان

يحصل من الطعام على مقدار يكون مافيه من كربون متناسبا مع الاكسجين الذى يصل اليه عن طريق التنفس .

ولما كان الانسان فى الجهات الباردة يتنفس اكسجيناً أكثر من زميله فى الجهات الدافئة: أولا، لان الهواء أكثف فى الجهات الباردة فيكون مقدار الاكسيجين فى الشهقة الواحدة أكبر مما لو كان الهواء مخلخلا خفيفاً . وثانياً، لأن الانسان يتنفس فى الجهات الباردة مرات أكثر عدداً فى كل فترة زمانية . فهذا التنفس السريع من الهواء الكثيف يضاعف كمية الاكسجين التى تصل الى الجسم فى الجهات الباردة . والنتيجة اللازمة لذلك أن الانسان فى هذه الجهات يجب أن يمد جسمه بمقدار من الكربون فى طعامه أكبر جدا مما يتطلبه زميله ساكن الجهات الحارة . اذن فأهل الشمال فى حاجة الى لحوم الحيوانات المختلفة لما تحتوى عليه من الكربون الذى يتطلبونه فى طعامهم ، مع أن أهل الجنوب يكادون يقتصرون على النباتات وحدها . ومن الحقائق العجيبة التى تلفت النظر ، أن كمية الحيوان أقل جدا من كمية النبات ومعنى هذا أن أهل الشمال لا بد أن يبذلوا أضعاف المجهود الذى يبذله أهل الجهات الدافئة للحصول على طعامهم ، ولا مندوحة من التعرض فى سبيل ذلك الى أشق الاخطار وأعنف الصعاب ، حتى أن بعض الكتاب يعلل بذلك روح المخاطرة التى تميز الاخلاق الاوربية . واذن فالنتيجة الطبيعية لقلة الطعام فى الجهات الباردة دون الجهات الحارة ، زيادة السكان فى الثانية بنسبة أعظم من الأولى . وزيادة السكان معناها كثرة الايدى العاملة ، وكلما كثرت هذه الأيدى قلت أجورها تبعا لقانون العرض والطلب ، وقلة أجور الطبقة العاملة معناها أن تتجمع الثروة فى أيد قليلة — هى الفئة القوية لأن توزيع الثروة هو توزيع للقوة — وهكذا تزداد هذه الطائفة ثراء على حساب أجور العمال . ثم يتسع هذا الفرق ويزيد حتى يتكون فى الامة طبقتان اجتماعيتان ، بينهما فارق شاسع فسيح : طبقة الملوك والاشراف ، والطبقة الفقيرة العاملة . وبديهى ان هذا الفرق الاجتماعي يكون فى الجهات الدافئة اكثر منه فى الجهات الباردة حيث السكان قليلون بسبب قلة الطعام ، فتزداد أجورهم نوعا ، وبذلك تقل الثروة التى تتجمع فى أيدى الفئة القوية ، وتضيق مسافة الخلف بين الطبقتين ، ولعل هذا هو السبب فى تمكن النزعة الاستبدادية فى بلاد الشرق ، ونماء الديمقراطية فى ربوع الغرب . ويظهر مما سبق ان العاملين اللذين اشترطهما «بكل» لقيام المدنية يتوفران فى الجهات الدافئة قبل الباردة .

يحسن أن ألخص هذا التفصيل فى سلسلة منطقية يسهل استيعابها حتى لا تتشعب أطراف الموضوع ، فيفقد القارىء الرابطة التى تصل بعضها ببعض :

زيادة السكان تتبع كثرة الطعام

ولما كان الطعام الضرورى للحياة اكثر فى الجهات الحارة منه فى الجهات الباردة فقد ازداد عدد السكان فى الجهات الحارة بنسبة أكبر من الجهات الباردة ولكن ازدياد السكان يؤدى الى قلة الاجور.

ثم يؤدى هذا بدوره الى ازدياد الثروة عند الطبقة القوية.

اذن فالطبقة غير المنتجة تظهر فى الجهات الحارة قبل ظهورها فى الجهات الباردة . ولما كانت نشأة العلوم — أى المدنية — رهينة بوجود هذه الطبقة غير المنتجة التى تستطيع أن تتفرغ للتفكير فالنتيجة المنطقية لكل هذه المقدمات هى أن المدنية تنشأ فى الجهات الدافئة قبل نشأتها فى الجهات الباردة ، ولكنها اذا مانشأت فى هذه الجهات الأخيرة ، كانت أقوى أساساً لما ذكرناه من أنها فى تلك الجهات نتيجة لتأثير المناخ فى الانسان ، فى حين أنها فى الجهات الدافئة نتيجة لتأثير المناخ فى التربة، ولذلك نراها تسير نحو الجهات الباردة كلما ارتقت وازدادت قدمها رسوخا ، ولو أنا تصفحنا التاريخ على عجل للاحظنا لأول وهلة أنها نشأت فى مصر (وهى منطقة دافئة) ثم أخذت تسير نحو الجهات الباردة شيئا فشيئا ، فقد انتقلت الى الشرق الأدنى ، ثم إلى اليونان ، ثم الى ايطاليا ، ثم الى أواسط أوروبا ، وهى الآن رابضة فى شمال غربى أوروبا ، ويتنبأ بعض الكتاب بأنها ربما استقرت فى اسكندناوه فى مستقبل أيامها ، وهناك من الدلائل مايؤيد ذلك .

لقد شرحنا فيما سبق القواعد العامة التى تتحكم فى قيام المدنيات ، ورأينا أنها نتيجة منطقية لمقدمات طبيعية ، وانها لاتخبط خبط عشواء فى سيرها . ويجمل بنا الآن أن نطبق تلك القواعد الشاملة على نشأة المدنية المصرية زيادة فى الايضاح

ذكرنا أن بواعث المدنية هى :

(١) اعتدال الحرارة لأن الحرارة الشديدة تشل قوة التفكير

(٢) خصب التربة

وهذان الشرطان متوفران فى وادى النيل ، فهو فى المنطقة

البقية على صفحة (٢٣)

٣ ـ القصة المصرية

للاستاذ جيب
أستاذ الادب العربى فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن

ولقد كتب الدكتور زكى مبارك معارضة من هذا القبيل يوافق فيها على أن القصة لا يمكن أن تنشأ فى مصر الا اذا حصلت المرأة على مركز اجتماعى لائق ، ويصف كتاب القصة فى الأدب العربى بأنهم ينتمون الى الطبقة الوضيعة من طبقات الأدباء، وينعى عليهم قلة خبرتهم بفنون الكتابة وعدم استقلالهم فى الرأى وسطوهم على الآداب الأوربية ، وأدهى من ذلك أنهم يغرون الشباب باحتقار فنون الكتابة الأخرى، على حين أن الأدب الحقيقى الذى يتجلى فيه الصدق والدقة الفنية قد يوجد فى ضروب أخرى من ضروب الكتابة كالرسالة والقصيدة . وليس من الجائز أن نحكم على الأدب العربى بما نشاهده فى الأدب الفرنسى والانجليزى ، بل يجب أن نحكم عليه حسب ميول أبنائه ، وحسب درجة نجاحه فى التعبير عن أفكارهم وأخيلتهم وأغراضهم . ويشير الكاتب الى أن آداب الصحافة فى مصر توضح الآن كثيراً من المشاكل العلمية والروحية ومشاكل العاطفة التى تواجه المصريين ، والى أن مراقبة الحكومة ووقوف الرجعيين بالمرصاد يحولان دون الافاضة فى توضيح تلك المشاكل . ويقول الكاتب ان هناك نقطة اخرى جديرة بالانتباه وهى أنه يجب علينا ونحن وارثو الماضى أن نستحضر ذلك الماضى ونحن نفكر فى الحاضر، وأن ننظر بعين الاعتبار الى الاساليب والطرق القديمة فى الكتابة حينما نتجه نحو التجديد ، فان ذلك أجدى علينا من هذا البهرج الكاذب الذى يزيف به الأدب الحديث .

ولكن الادب العصرى فى مصر قد أثبت الآن حيويته وسار فعلا فى طريق الاستقلال، وليس من الممكن أن يجد القارىء المتوسط بغيته الآن فى الأدب القديم، فانك اذا وجهت اهتمامه مثلا الى العقد الفريد أو الى غيره من آثار « العصر الذهبى » فكأنك بذلك تعطيه حجرا بدل الرغيف الذى يطلبه ويصر على الحصول عليه . واذا وقف الكتاب دون امداده بما يطلب فانه يتجه الى استيراده من الخارج مهما ثبت له عدم ملاءمة ذلك الذى يستورده لطبيعته وحالته الاجتماعية . وقل أن يجد القارىء فى المقالة أو فى الموضوع الذى يعرف بالرسالة فى القصيدة العادية ما يغير خياله ، اذ ينقصها عنصر الخيال واللذة الحية، اللهم الا فى القصيدة الشعرية المتينة فقد يكون فيها ما يدخل فى دائرة الميراث الخيالى للناس .

وهكذا نرى أن المسألة فى جوهرها ليست مسألة تقليد ومحاكاة لأهل الغرب، فلقد أدى اتساع التعليم الى اتجاه ميول القراء الى نواح أخرى . ولما نشأت تلك الحالة فى أوربا عمد الكتاب الى القصة ليقابلوا بها ميول القراء، ونستطيع أن نقول انه مالم يتسن للكتاب المصريين ايجاد القصة فسيستمر اتجاه القراء فى مصر الى الأدب الأوربى، فان المقالة أو الموضوع الأدبى أقل من أن يفى بالغرض الذى يسعى اليه القراء

اما القول بأن ادخال فن من فنون الكتابة لم يكن موجوداً من قبل قد يكون فيه مساس بكرامة الشعب الأدبية فرأى مبنى على التطرف والمبالغة، وهل أدى ادخال القصة فى الأدب التركى أو الهندى الى الحط من كرامتهما ؟ كلا . ومن أجل ذلك نرى القصة المصرية تنشب جذورها فى تربة الأدب المصرى فى ثبات مهما صادفت من صعاب ونكران للجميل.

ولكن القصة لاتصل الى تمام نموها ، إلا اذا وافقت بيئة البلاد الاجتماعية، ومن هنا تنشأ المشكلة الرئيسية

اذا وضعنا جانباً تلك العوامل الاجتماعية التى تكلمنا عنها فان كتاب القصة فى مصر قد ووجهوا بمشكلة أخرى أشرنا اليها فى مبدأ هذا البحث وهى خلق (فن اصطلاحى حديث) للقصة . ونستطيع أن نتبين فى كتابات المنفلوطى وجورجى زيدان بعض المحاولات فى هذا السبيل ولكن من حيث الاسلوب فقط ، الاول بطريقته والثانى بسهولة عبارته ،ولكن كلاهما لم يتعرض للنقطة الاساسية ، وهى الوصول الى تمثيل

الحياة الاجتماعية الراهنة تمثيلا صحيحاً فى الألفاظ وطريقة التعبير عما فى النفس وعلى الأخص فى الحوار.

على أن هذه المهمة قد وجدت من اشتغل بها من كتاب القصص القصيرة وأقدمهم فى ذلك هو محمد تيمور (١٨٢٩ — ١٩٢١) ويمنعنا ضيق المجال هنا من أن ندرس بالتفصيل آثار تلك الطائفة، ولذلك نكتفى بأن نشير الى نقطة من أهم النقط التى تعرضوا لها أو هى الطريقة التى جروا عليها فى أسلوب الحوار.

وهنا ينبغى أن نذكر أن مشكلة الاسلوب الواجب اتباعه فى الحوار لم تكن مقصورة على الأدب العربى ولكنها ظهرت أيضا فى كثير من آداب الممالك الاوربية وبخاصة فى تلك الممالك التى لم تكن قد هذبت فيها لغة التخاطب العادية تحت تأثير الكتابات الادبية، وتنحصر تلك المشكلة فى السؤال الآتى : هل نستعمل اللغة الفصحى فى الحوار وبذلك نجعله حوارا مصطنعاً غير طبيعى ؟ أم نقتصر على اللغة الفصحى فى القصص والوصف ، ونستعمل العامية فى الحوار، وبذلك نعرض القصة للتفكك والتنافر ؟

ولقد سار الكتاب فى القصص التى ظهرت فيما قبل على الطريقة الاولى أعنى استخدام اللغة الفصحى فى الحوار لا فى الترجمة فحسب — وهنا تكون المسألة طبيعية — ولكن فيما ألفه كتاب القصص من السوريين أيضا ، وذلك يذكر القارىء الأوربى ما كانت عليه القصص الأوروبية أثناء نشأتها من فتكلف والضعف . وتعتبر زينب فى نظرى أول قصة استعملت اليها اللغة العامية فى الحوار ، ولقد ترك ذلك أثراً فى القصص القصيرة الأخرى، ونخص بالذكر منها مجموعة محمود تيمور المسماة « بالشيخ جمعة » ولقد قامت بجانب ذلك فكرة أخرى وهى أن يكون الحوار بحسب درجة تعلم المتكلم، وبذلك يراوح الكاتب بين اللغة الفصحى واللغة العامية هبوطا أو صعوداً، واذا استعمل الفصحى على لسان شخص متعلم الأدبية العالية ينبغى أن يتحاشى العبارات ، لكى يتمشى ذلك مع السهولة المطلوبة والمعتادة فى الحوار (ويلاحظ أن الحوار فى الطبعة الثانية للشيخ جمعة قد عدل بما يتفق مع هذا المبدأ) . وبهذه الطريقة يتسنى للكتاب أن يحرصوا على المظهر الطبيعى للقصة مع تضحية قليلة فى الصدق والاصابة بحيث لا يصعب على القارىء أثناء مطالعة القصة أن يحول فى ذهنه عبارات الحوار المكتوبة الى مايعرفه من عبارات الحديث المألوفة . ونحن من جهتنا نتوقع أن نشاهد تحقيق هذه النظرية فى القريب، وعلى الخصوص مع اتساع التعليم الابتدائى وبفضل مجهود الادباء .

ويبقى علينا فى هذا الصدد أن نتساءل الى أى حد قد استطاع القصصيون الحديثون فى مصر أن يعبروا عن مشاكل شعبهم وحاجاته وأطماعه . يمكننا أن نستنتج من البحث المتقدم أن عدد القصص التى يظهر فيها ذلك قليل جداً اذا اقتصرنا على الآثار التى لها قيمة أدبية حقيقية .

يعتبر نقولا حداد ، صاحب جريدة السيدات والرجال التى نشرت فيها معظم مباحثه ، أوفر القصصيين العصريين انتاجا وهو فى نظر محمود تيمور أبعدهم شهرة أيضاً . وعلى الرغم من أن الرجل سورى الأصل فان لبحثه وأسلوبه صبغة مصرية اكثر مما لسواه من الكتاب السوريين، ونستطيع أن نحكم من روايته التاريخية « فرعونة العرب » أن لديه مقدرة على اجتذاب القراء اليه بما يتخلل قصته من الحركة السريعة والمواقف الرائعة. على أن خطة القصة فيها شىء من التفكك ، والأشخاص تعوزهم قوة التصوير ، حتى اننا نشك فيما اذا كان المؤلف قد أضاف شيئاً الى نمو القصة المصرية من حيث الشكل أو من حيث الموضوع.

وهناك قصة تاريخية أخرى تحوى الشىء الكثير من اللذة الادبية ، وتعتبر أول عمل من نوعه فى الادب المصرى ، تلك هى قصة « ابنة المملوك » لمؤلفها الاستاذ محمد فريد أبو حديد ، وهذه القصة لا تمت بأية صلة الى ذلك النوع من القصص التاريخية التى أخرجها زيدان ، وهى من جهة أخرى تفوقها من وجوه عدة . ففى قصة ابنة المملوك قد حلت الحقيقة محل الخيال الجامح الذى تمتاز به قصص زيدان ، وفضلا عن ذلك فان تلك القصة لم تستغرقها كثرة الحوادث التاريخية ، وانما وضعت بطريقة تاريخية واضحة ، وكان العصر الذى اختير لها هو فترة النزاع بين محمد على والمماليك سنة ١٨٠٥ الى ١٨٠٨ ولقد استطاع المؤلف أن يعرض الحوادث التاريخية فى ثنايا القصة بحيث لا يجتذب التفات القارىء اليها قسراً . وحتى أهم الحوادث التاريخية فى تلك الفترة وهى الحملة الانجليزية التى وجهت الى الاسكندرية وهزيمتها فى رشيد عام ١٨٠٧، لم يشر اليها المؤلف إلا إشارة وجيزة فى سطرين أو ثلاثة مع أن بطل القصة وهو فتى عربى فار من وجه الوهابيين قد صوره المؤلف على أنه قام بنصيب فى تلك الحرب ، ومع أن القصة لم تنجح تماما فى تجنب الجفاء الذى تمتاز به القصص التاريخية

نجد على الرغم من ذلك حياة وحركة فى تصوير الأشخاص . وهى فضلا عن ذلك تسترعي انتباه القارىء من فاتحتها حتى خاتمتها التى جاءت فى شكل مأساة .

تأتى بعد ذلك تلك القصة التى نشرت حديثا ، وتعتبر من جميع الوجوه أهم قصة صدرت بعد زينب . وهى القصة التى طال انتظارنا اياها من المازنى . وقد نشرت عام ١٩٣٠ تحت عنوان ابراهيم الكاتب . ويقول المؤلف فى مقدمة القصة إن جزءاً منها كتب فى عام ١٩٢٥ وانها تمت فى عام ١٩٢٦ ثم تركت بعد ذلك جانباً، وإن جزءاً من نصفها الأخير قد كتب بسرعة أثناء الطبع نظراً لفقد بعض الأصول وقد يساعدنا ذلك على تفسير الاضطراب الذى سنشير اليه أثناء الكلام عنها . وقد جاء فى المقدمة أيضاً بحث شيق للمشاكل التى تكلمنا عنها . أما فيما يختص بأسلوب الحوار فان المازنى يرفض الكلام العامى لخلوه من دقة التعبير وعدم ثباته ، فى حين أن العبارات الفصيحة آخذة فى التقدم والتهذيب يوما بعد يوم . ويعارض المازنى أيضا فى مقدمته هيكل بك فيما يراه من أن العوامل الاجتماعية فى مصر تحول دون خلق القصة المصرية . فان القائلين بهذا الرأى يفترضون خطأ أن القصة الغربية هي النموذج الوحيد للفن القصصى . ولكن لم لا يكون هناك قصة مصرية قائمة بذاتها تميزها مميزات خاصة ؟ ويرى المازنى أن الحياة الاجتماعية فى مصر لاتقوم عقبة فى وجه أى كاتب بارع الخيال . ويقول اننا اذا سلمنا بأن وجهة المصريين وأفكارهم فيما يتعلق بالحب ،تختلف عن وجهة الاوربيين فى ذلك ، فلا يتحتم أن يكون ذلك عقبة كأداء فى سبيل القصة المصرية . ولم تكون عاطفة الحب ذاتها هي المحور الاصلى الذى تدور حوله القصة ؟ ويضيف المازنى أن مايتخيله الكتاب من ضيق مجال القصة المصرية ، إنما هو « نوع من الهستيريا » لا أقل ولا أكثر .

على أن القصة نفسها لاتحقق ماينتظره منها المرء بعد هذه المقدمة . وليس ذلك لانها أخفقت فى الخطة أو فى تفصيل المواقف وتصوير الاشخاص أو فى غير ذلك من المسائل الفنية. كلا فانها من هذه الوجوه أحسن قصة فى الأدب العربى على ماأعلم ،ويتجلى فى هذه القصة تلك الروح التى ينفرد بها المازنى من جميع معاصريه أعنى تلك الرقة هاتيك الروح الفكاهية التهكمية التى تظهر فى كتاباته . ويسير القصص فيها سيراً حثيثا وفى سهولة كما أن الحوار سهل طبيعي وقد جاءت الانتقادات الاجتماعية والتحليلات النفسية ـ التى قصد اليها المؤلف بطريقة مضمرة فى ثنايا الكلام — أكثر منها صريحة واضحة . ولكنها على الرغم من ذلك ـ فيما عدا أشخاصها واوضاعها ـ ليست قصة مصرية بالمعنى الذى يفترضه المازنى نفسه . وأكبر دليل على ذلك أن بطل القصة عبارة عن شخصية غريبة لا تكاد تنطبق الا على القليلين من المصريين ، وربما كان الناشر مصيباً فى أن اتفاق الاسم بين المؤلف وبطل القصة لم يكن أمراً خياليا محضا . والقصة ذاتها غربية فى المشاعر والمثل، كما هى كذلك أيضاً فى المسحة الأدبية وفى الموضوع الذى تدور حوله . ودراسة عاطفة الحب قائمة على أساس غربى لاشرقى وحتى المظاهر الخارجية ذاتها من حيث الشكل والأسلوب تنطق بهذا الطابع الغربى،ومن أمثلة ذلك كثرة استعمال المجازات والجمل الغربية. وأغرب من ذلك كله جرى المؤلف على طريقة اقتباس فقرات من الانجيل فى رأس كل فصل من فصوله. ويوجد فرق محسوس فى اللهجة والموضوع بين نصف القصة الاول ونصفها الثانى . أما الاول فانه يسير فى دائرة الحياة الاجتماعية المصرية ولا يمكن أن يصور مافيه من فكاهة وعطف إلا قلم كاتب مصرى . أما النصف الثانى فيستبين فيه جو آخر وتتغير فيه اللهجة الاولى تدريجياً كما لو كان أسلوب المؤلف قد تأثر بما انتاب بطل القصة فى هذا النصف .

ونحن دون أن ننكر على المؤلف إصابته فى الخيال ، نقرر أن «ابراهيم الكاتب» «كزينب» واضحة الصلة بالرواية الغربية، ولكن ماحوته زينب من العواطف لايروق فى عين المازنى الذى تتجه ميوله الى جهة أقوى،والذى يهتم بتمثيل الحقيقة . وفى هذه الحالة نقول إن تداعى الافكار الأدبية التى يمتاز بها فكر المازنى قد صرف ذهنه إلى رواية « سانين » فأوجد صلة بين رواية المازنى أو على الاقل بين جزء منها فى تصوراتها وبين هذه الرواية الروسية التى ترجمها المازنى تحت عنوان « ابن الطبيعة» . نعم ان رواية ابراهيم الكاتب تختلف كل الاختلاف فى الخطة وفى طريقة الاتساع عن قصة « سانين » ولكن شخصية ابرهيم قد استعادت بعض الشىء من شخصية سانين . وفى رواية المازنى منظر يعتبر ترجمة حرفية لخاتمة القصة الروسية .

ومما تقدم نرى أن القصة المصرية كما يتجلى فى كتابة كاتبين من أكبر كتابها،لاتزال دون المثل الذى رسمه لها الكتاب . ولا تصل القصة المصرية الى كمالها ، الا بالجمع بين المقدرة الفنية التى يمتاز بها كتاب الغرب وبين

ابن خلدون فى مصر (٤)

للاستاذ محمد عبد الله عنان

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه الى مصر وماوقع له بها، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه، وطلب اليه أن يكتب له رسالة فى وصف المغرب، وحدثه المؤرخ بانه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى مذ تألق نجمه وبزغ مجده، وشرح له طرفا من آرائه ونظرياته الاجتماعية فى العصبية والملك . ولا ريب أن مفاوضة فى شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ، فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ الى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة.

ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حيناً ، ثم انصرف واشتغل أياما بكتابة رسالة فى وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله اثنتى عشرة كراسة صغيرة ثم قدمها الى تيمورلنك فأمر بترجمتها الى اللغة المغولية (١)

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت التسليم من بطش الفاتح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة فى المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعبث والنهب وأضرموا النار فى معظم أحيائها وتكررت المناظر المروعة التى وقعت فى حلب، على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة وحدثه تيمورلنك ضمن ماحدث بامر شخص تقدم اليه مدعياً بالخلافة وانه سليل بنى العباس وجرت مناقشات فقهية طويلة فى شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته فى الخلافة. وقدم ابن خلدون أيضا الى الفاتح هدية هى «مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين فى مجلسه

والتمس المؤرخ منه فى هذا المجلس أمانا للقضاة والرؤساء والعمال فاجابه الى طلبه وأصدر الامان

يصف لنا ابن خلدون هذه المحادثات والمقابلات التى وقعت له مع الفاتح التترى ، وقد كان فيها يؤدى دور المفاوض والسياسى القديم . ولكن مؤرخا مصريا هو ابن اياس يقدم الينا فى ذلك رواية أخرى، فيقول لنا ان الذى قام بمفاوضة تيمورلنك فى تسليم دمشق هو القاضى تقى الدين من مفلح الحنبلى، وانه هو الذى ادلى من السور واختاره الزعماء لتلك المهمة، لانه كان يعرف التركية وانه هو الذى سعى فى تسليم المدينة واقتاد وفد القضاة الى الفاتح واستصدر منه الامان وتولى تنفيذ جميع رغائبه فى جمع المال والاسلاب (١) ولكن ابن خلدون صريح فى روايته فى انه هو المفاوض والوسيط فى عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وانه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ولا شك فى روايته . وهى من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقى مؤرخ تيمورلنك الذى كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت اسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ويصور لنا فى عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من احاديث ومناقشات . (٢) على ان صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة اخرى ان يكون ابن مفلح قد اشترك فى المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم .

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا اخرى غير ما وفق اليه فى شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة، ولعله كان يرجو الانتظام فى بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب فى ظل رعايته ونعمائه . على انه لم يوفق بلا ريب الى تحقيق مثل هذه الامنية فلم تمض اسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق وذهب الى تيمور يستأذنه فى العود الى مصر فاذن له وطلب اليه فى تلك المقابلة ان يقدم اليه بغلة اذا استطاع فاهداه المؤرخ اياها وبعث اليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله الى مصر . وغادر

(١) لم تصل الينا هذه الرسالة التى كتبها ابن خلدون فى وصف بلاد المغرب ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة مما كتبه فى ذلك فى تاريخه الكبير فى القسم الذى يخصصه لتاريخ البربر يمهد له بوصف عام فى جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها)

(١) ابن اياس فى « تاريخ مصر » (بولاق) ج ا ص ٣٣١ و ٣٣٢

(٢) ابن عربشاه فى كتاب « عجائب المقدور » (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها — وراجع كتابى « مصر الاسلامية » ص ١٢١

الالهام المصرى . والى ان يصل الكتاب الى ذلك سيظل معظم القراء المصريين مقبلين على آداب غيرهم ، ولن يقف تيار الأدب الأوروبى الا اذا تسنى للمصريين أن يخلقوا فنا جديدا من فنون الكتابة بواسطته تظهر القصة المصرية فى معناها الحقيقى.

محمود الخفيف

ترجمها عن الانجليزية للرسالة

المؤرخ دمشق فى شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها ودهمه اللصوص اثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ولكنه وصل سالما الى القاهرة فى اوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطا بنجاته «وحمدت الله على الخلاص». ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق يصف هذه الحوادث وما دار بينه وبين تيمورلنك ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه.

—٣—

وما كاد ابن خلدون يستقر فى القاهرة حتى أخذ يسعى للعود الى منصب القضاء. وقد رأينا انه كان يحتفظ دائما بكرسى التدريس فى مدرسة أو اثنتين. ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ، وكان ابن خلدون يشعر وهو فى ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة انه بحاجة الى ذلك النفوذ الذى اعتاد أن يتمتع به فى جميع علائقه السلطانية، وكانت المعركة التى تضطرم حول ذلك الكرسى، والتى شهدنا مظاهرها فى تكرار تعيينه وعزله، تذكى بلا ريب فى نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسى، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه. وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع ابدا الى مسند النفوذ والجاه، ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه ثقة فى اشارة موجزة اذ يقول لنا فى خاتمة ترجمته للمؤرخ «رحمه الله، ما كان أحبه فى المنصب» (١). وكان ثمة شىء آخر الى جانب هذا الشغف بالمنصب، فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة، يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته فى القصر وان يتغلب على كيد خصومه، ويفقده كلما نجحت سعاية خصومه فى حقه

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية فى المحرم سنة ثلاث كما قدمنا، وذهب معزولا فى ركب السلطان الى الشام، فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدس فى حقه، وزعم بعضهم انه هلك فى حوادث دمشق (٢). ويريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظا له أو انه وعد على الأقل برده اليه من أولى الامر، فيقول لنا انه على أثر هذا الارجاف فى حقه عين مكانه فى قضاء المالكية، جمال الدين الاقفهسى (جمادى

(١) ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠١
(٢) «التعريف» فى النسخة المخطوطة

الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك، وعزل الاقفهسى، وولى ابن خلدون للمرة الثالثة فى أواخر شعبان أو أوائل رمضان (١) فلبث فى منصبه زهاء عام يعمل فى جو يفيض بالاحقاد والخصومة، ولكنه يقول لنا انه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وانه استمر كما كان «من القيام بالحق والاعراض عن الاغراض». فاضطرمت من حوله الدسائس القديمة، واشتدت فى حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة، وعزل المؤرخ كرة أخرى فى ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤)، وولى مكانه جمال الدين البساطى فى أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل. والظاهر ان المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة، وان ابن خلدون عانى من حملات خصومه مالم يعان من قبل، حتى انه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووجه اليه كثير من التهم. ويقول لنا ابن حجر والسخاوى فى هذا الموطن: «وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أموراً كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له من الاهانة مالا مزيد عليه» (٢). وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر، وبقى مظهرها التداول على المنصب، ولكنه انحصر حينا بين ابن خلدون والبساطى، مما يدل على ان البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوىء المؤرخ فى هذا الدور من المعركة. والظاهر أيضاً ان ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثراً مما يعتمدون عليه، فانه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة، واستمر فى المنصب عاما وشهرين، ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الاول سنة ست (٨٠٦)، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسى فلبث ثلاثة أشهر، ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسى لمدة يومين فقط، ثم أعيد البساطى فى ربيع الاول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل فى شعبان من العام ذاته، ثم أعيد

(١) يذكر ابن خلدون فى التعريف أن تعيينه هذه المرة كان فى «أواخر شعبان». ولكن ابن تغرى بردى يؤرخ هذا التعين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠١) ويقول ابن اياس انه كان فى ١٣ رمضان، تاريخ مصر ١ ص ٣٣٧،
(٢) ابن حجر فى كتاب «رفع الاصر عن قضاة مصر» (مخطوط دار الكتب ١٠٥ تاريخ) ورقة ١٥٩ — وينقله السخاوى فى الضوء اللامع.

المنجـــــــــم

للدكتور محمد عوض محمد

جلت الى جانب المنجم ... أحدق فى جوفه الأقتم
ظلام رهيب «...وغور بعيد» ... وليس إلى القاع من سلم !
فياعجبا ! أى كنز ثميـ ... ـن تكدس فى قاعه المظلم ...؟
وأى نعيم لمن يستطيـ ... ـع وصولا إلى جوفه المفعم !
وأى انتصار لمن قد يغو ... ص فيخرج مافيه من أنعم !

***

ومالى أحجم عما أرو ... م ولا فوز فى الدهر للمحجم..
أيانفس قد آن أن تقحمى ... رهيب الخطوب وأن تقدمى!

***

فياصاح هات الرشاء المتيـ ... ـن لأدليه من فم المنجم
وأنزل وسط الظلام المخيـ ... ـف نزول العقاب أو القشعم
عناء على بؤس عيش مضى ... لقد آن يانفس أن تنعمى !

***

فما زلت أهبط فى حندس ... به الكف لاتهتدى للفم
الى أن تحجب ضوء النها ... ر وأمسيت فى حالك أدهم ،
أحاول جهدى التماس السبيـ ... ـل بسمع أصم وطرف عمى !

وحولى هواء رطيب كريـ ... ـه كأنى فى بؤرة من دم
وكم من بخار غريب مريب ... ومن نفس مدنف مسقم !
فهل مثل هذا الطريق الكريـ ... ـه يؤدى الى المقصد الأعظم ؟
على أن صوت الرجاء الملـ ... ـح يهيب بنفسى : «لاتحجمى !
فكم نقمة طيها نعمة ... وحلو تولد من علقم ! »

***

فما زلت منحدرا ... نازلا ... بصبر الجليد وعزم الكمى
ينير فؤادى ضياء الرجا ... ء فلم أتراجع ، ولم أهزم
وكم شدة إزرها شدة ... تحملتها غير مستسلم !

***

وبعد عناء وسير طويـ ... ـل إلى غاية المنجم المقتم !
وصلت الى قاعه مجهدا ... وقد أخذ الوهن من أعظمى!
ورحت أفتش أرجاءه ... بقلب مشوق وصدر ظمى
أطوف به باحثا فاحصاً ، ... فأعدو هنا ، وهنا أرتمى
فلم ألق كنزاً ولا شبهه ، ... فياحسرة البائس المعدم !

***

وما كل شيء عزيز الطلا ... ب بذخر ثمين ولا مغنم!
وما كل ممتنع فى الخدور ... حقيق بعشق الفتى المغرم!
وكم يخدع النفس بعد المنا ... ل وتغتر بالغامض المبهم . . . !

الضحية

سلوت ولكن لايزال يهجنى
حنين الى الماضى البعيد بعيد
وكم حاولت نفسى السلو فلم تجد
لها مذهباً إلا اليك يقود
أنا الحر لكن فى هواك مقيد
وفى الحب دنيا رحبة وقيود
أحن الى عهد الدموع ولم يزل
أخو الحب يسلو تارة ويعود
ليالى . . كالأطلال ينعب بومها
لها كلما جن المساء نشيد

***

ترومين قرباناً ينجيك من لظى
فروحى قربان وموتى عيد

حلب — عمر ابو قوس

ابن خلدون للمرة السادسة فلبث فى منصبه بضعة أسابيع فقط (١) وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) توفى المؤرخ والمفكر الكبير ، قاضيا للمالكية وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث وروائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر (٢) وهى يومئذ من مقابر العظماء والعلماء

ويصل ابن خلدون فى تدوين اخبار هذا النضال العجيب حتى عزله للمرة الخامسة فى ذى القعدة سنة سبع اعنى الى ماقبل وفاته بعدة أشهر فقط . (للبحث بقية)

(١) راجع أدوار هذه المعركة وحوادث التعيين والعزل، ابن خلدون نفسه فى التعريف (النسخة الخطية ص ١٤٧) . وحسن المحاضرة للسيوطى (مصر) ج ٢ ص ١٢٣ ، والمنهل الصافى (ج ٢ ورقة ٣٠١) ، وتوجد مفارقات يسيرة بين التواريخ فى مختلف الروايات

(٢) السخاوى فى الضوء اللامع المجلد الثانى من القسم الثانى ص ٣٧٠

الذكري

أيتها الذكرى جزيت من دمى
أنت وان نكأت جرحى بلسمي
ما أنت ؟ هل أنت كتاب دارس
يهمس بين دفتيه هامس ؟
أم طائف يهزج قيد مسمعى
إذا خلوت بالبكا كان معى
أم واعظ بالزفرات ينطق
أم شبح بناظرى معلق
أم أنت فى ليل الضمير ناعبه
أم نا كل بين الضلوع نادبه
أغريت بى طيف الحبيب ، مرحبا
بمن أباح مهجتى وعذبا
يزورنى مع الكرى وفى السهد
يازأراً بالقلب والجفن انعقد
أحببته لغرة مثل الضحى
وطلعة لوشامها الصبح امحى
ومقلة أهابها بين المقل
ومبسم من مشرع الخلد نهل
كأنه الوردة فى ريعانها
أو نعمة البائس فى إبانها
يشفى غليل المستهام ان ألم
وربما داوى الشقى بالألم

***

أحببتـه حباً على النفس غلب
وما على الصب المشوق لو أحب ؟
ان الشباب نهم مزوق
نشوان من كل حلال يسرق
يلص مايحلو له بلا وجل
ويشحذ النظرة تمضى كالاجل
ولا يبالى أحرقته ناره
وزلزلت فوق الصعيد داره
أم عانق اللذة فى غلائل
وجاده صوب النعيم العاجل

أيتها الذكرى أعيدى ماغبر
ورددى ماطاب من عيشى ومر (١)
لله أيام الصبا ماأجملا !
ودورة العمر بنا ما اعجلا !
أين لاترابى أمس ملعب
ومستراد نازح ومذهب؟
وأين عهد بالحمى لايخلق
وكيف وهو للحياة مشرق ؟
تغير الصحب وقوض الحمى
كأننا عشنا به توهما !
وغالت الأحلام غولة القدر
فودع السكر وجاءت الفكر
أكلما لج الاسى بخاطرى
محوت بالماضى شقاء الحاضر؟
سينضب العمر فبقى سره
والحب خطى فى الهواء قبره
وأسمعينى فى الممات لحنه
وصورى لناظرى حسنه

(سورية) حمص — رفيق فاخورى

نشـــأة المدنيـة

(بقية المنشور على صفحة ١٦)

المعتدلة الدافئة ، وتربته غنية بما يحمله هذا النهر المقدس من طينة كأنها النضار

(٣) ولكنا اشترطنا أن تجود الأرض بأكثر من حاجة الاستهلاك ، وهذا متوفر فى مصر . فقد كان البلح والذرة هما النبات الرئيسى الذى تجود به أرض مصر جود الكريم ، وبذلك يصبح تحصيل القوت ميسورا ، واذن فزيادة السكان نتيجة محتومة ، إلى آخر مايتبع ذلك من نتائج. وبعبارة واضحة، لعلها لاتدهش القارىء بعد التحليل الذى بسطناه ، ان نبات الذرة فى مصر هو السبب الاساسى الذى دفع المدنية المصرية الى الظهور . ومما يؤيد هذه النتيجة. أن المدنية المصرية نشأت أولا فى الوجه القبلى لأنه أصلح لانبات الذرة ، حتى يقال ان زراعته انتقلت منه الى الوجه البحرى فى وقت متأخر ، ولا يزال صعيد مصر يزخر بآثار تلك المدنية العظيمة التى تنهض دليلا على ذلك .

ومما يؤيد زيادة السكان ، التى نتجت عن وفرة الطعام ،

فى الأدب الشرقى

فى الادب الصينى

القصة الحديثـــــــة

فى الأدب الصينى

مترجمة عن مجلة الشهر الفرنسية

ليست القصة الصينية بنت الأمس، وإنما يرجع مولدها الى عهد أسرة (Tcheau) تشيو وكانت تسمى يومئذ (سياوشوو) أى المناسبات الضئيلة، وكتابها الأولون هم لى يوكيو، وتشو، وانغ تسو، وتشنغ شى تسو.

فالاول كان من رجال القرن الرابع قبل الميلاد، والآخران قد نبغا بعده بقرن وقصصهم كانت تستمد موضوعاتها من الاساطير والخرافات والامثال، ولبثت القصة فى هـذا الطور الابتدائى أمداً طويلا حتى ولى الحكم أسرة (طنغ) (٦١٨ — ٩٠٧) فدبت فيهـا الروح وسارت فى طريق الكمال.

كان العمل الروائى فى الاقاصيص والحكايات يتقدم شيئاً فشيئاً خلال القرون الخالية حتى أصبح قبيل العهد (الطونغى) مسلاة أدبية. وكان القصص على شـدة قصره لايجرى على خطة مقررة فأقره كتاب العصر الطونغى فى نصابه من العناية والفن فحددوا الغاية، ورسموا الطريقة وبسطوا العمل، ودققوا التفاصيل، وجودوا الأداء، حتى أصبح أجمل المظاهر فى الأدب الصينى بعد أن كان موضع الزراية والاحتقار عند اشياع كونفشيوس.

كانت الاساطير وحيـاة النابهين فى الشرف أو النابهات فى الحسن موضوع الاقصوصة من أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع فكتب (ونغ تسو) (حياة مرآة قديمة) وهى أقصوصة بطلتها مرآة سحرية مغامرة صرعت ثعلبة مسحورة تحولت الى امرأة، ثم قهرت أفعوانا ضخما كان قد اتخذ وكره فى أصل شجرة، ثم قتلت قرداً وسلحفاة فاستحالا الى انسانين أخـذا يحاضران فى العلم والسحر الخ وكل مغامرة من هـذه المغامرات يحكيها القصصى بثقة، ويصدقها القارىء ببساطة. وفى النصف الاخير من القرن الثامن ظهرت أقصوصة أخرى شهيرة، وهى أقصوصة المقام فى مخدة تأليف (شن كى تسى) وموضوعها أن (لو) الخالد أعطى أحد الشبان مخدة سحرية فدخل فيها ورأى رؤيا عجيبة يقصها فتستغرق أعاجيبها كل الحكاية. ثم ظهرت على أثر ذلك أقاصيص الابطال فغلبت على أذهان القصاص والقراء حتى اليوم، فالبطل ذو السيف لايعجزه شيء ولا تنقصه موهبة فهو يطير، وله سيف يدرك ويشعر فهو فى السلم يقصر ويختفى فى أنف البطل أو فمه وفى الحرب يخرج ويقتل العـدو على أى مسافة يريدها صاحبه، وللصينيين ولوع بهذا الضرب من القصص حتى فى نهضتهم الحديثة، وبجانب أقاصيص الخوارق والاعاجيب تجد سير العظماء والامراء محكية على نمط تاريخى أو روائى أو هجائى كسيرة (لى كوى) وسيرة (ينغ — ينغ) ولـكن فى النادر أن تجد فى الادب الصينى حكاية أو سيرة تقوم على الواقع وحده، فالكتاب على الجملة يميلون الى تزيين الحقيقة بالمبالغة والتزيد فيجرهم ذلك الى فقـد الوحدة أو عدم التوازن أو خطأ المغزى.

أما القصة الطويلة ذات الفصول فلم تظهر إلا فى عهد آل سونغ من ٩٦٠ الى ١٢٧٩ م وهم يسمونها (بنغ هويا) منشؤها فى الصين كمنشئها فى سائر بلاد الشرق: رجل يسمونه (المحدث) يقص على النـاس فى مجلس عام حكاية من الحكايات بالاجر، فمن فائدته إذن ان يطيل الحكاية ما أستطاع لينتفع من ورائها فى جلسات كثيرة، والجزء الذى يحكيه فى جلسة من هذه الجلسات

ماذكره هيرودوت من أنه وجد فى مصر عند زيارته لها عشرين الف مدينـة عامرة. وقد أدت زيادة السكان طبعاً الى نقص الأجور وتفاوت الطبقات تفاوتا عظيما، بلغ حد التأليه للملوك، ونزل بطبقة العمال الى هاوية التسخير غير المأجور، كما يتضح من بناء الاهرام وما اليهـا.

ليست أحداث التاريخ فوضى لاضابط لهـا كما يتبادر الى الأذهان التى تقف عنـد النظر السطحى، ولـكنها تبدو لذى يستبطن دخائلها، خاضعة لقانون محكم لايشذ، ومنطق سليم لاعوج فيه ولا التواء.

زكى نجيب محمود

يؤلف فصلا من فصول السيرة وظلت (الينغ هويا) على هذا النمط الأولى حتى جاء (لوبن) ١٣٣٠ – ١٤٠٠ فى عهد آل يوان فجعلها فنا، كان يقتبس موضوعاته من التاريخ ولكنه يضيف اليها وقائع واشخاصا من عمل الخيال. وكان يصور أبطاله على نحو مايفعل القصصيون الاوربيون اليوم. كتب (لوبن) عشرات من القصص ولكن أفضلها واجملها قصته المسماة (على شاطىء البحيرة) تقع فى مائة فصل وتدور على مخاطرات بطل يدعى (سونغ كيانغ) مع رفاقه المائة والسبعة – وهو شخص تاريخى ورفاقه كانوا ستة وثلاثين ليس غير – وكانوا يحتلون (اليانغ شان) ثم ثاروا على اسرة سونغ الحاكمة فهاجموا مدنها وقاتلوا جيشها ونهبوا مقاطعاتها وأصبحوا حكاما فى هذه الارض. وهؤلاء العصاة الفتاك كانوا من خيار الناس فالجأهم الى هذا الموقف عسف الامبراطور ومن هاواه من الخونة.

ولم يكن هم (لوبن) ان يخلق أشخاصا ويصف اخلاقا وانما كان همه فوق ذلك أن يرمى الى غرض أخلاقى، وتلك هى الصفة الغالبة على الآداب الصينية، فالكتابة عند كتاب الصين وسيلة الى الخلق، والشعر عند شعرائها طريق من طرق التربية. والاخلاق عند (لوبن) قائمة على الديمقراطية، فهو يؤلب الاخيار المضطهدين على الاسرة الحاكمة، ويحارب الفروق الاجتماعية بين طبقات الشعب، فلا يعترف الا بصنفين من الناس: الشجعان والاذكياء، وهؤلاء وأولئك ملزمون أن يعملوا لخير الأمة، ولا بأس أن يعيشوا عيش اللصوص وقطاع الطرق ماداموا يذودون بذلك عن المظلومين والمحرومين.

ثم ظهرت بعد ذلك طائفة كبيرة من القصص على عهد آل (منغ) من سنة ١٣٦٨ —١٦٦٢ م ولكن قصتين اثنتين من بينها تلفتان النظر وتسترعيان الخاطر وهما (حكاية رحلة الى بلاد المغرب، و(زهور الشر فى أصيص من الذهب) فالأولى قصة وهمية كثيرة المخاطر الخارقة والأوهام العجيبة. والثانية قصة نفسية (بسيكولوجية) لمؤلف مجهول تدور على ما وقع من المخاطر الغرامية لغنى من الاغنياء اسمه (سى من كنغ) وهو متبطل شهوان محصن ولكن له اخدانا كثيرات، والقصة تعرض بالتفصيل حياة هؤلاء الخليلات الخاصة، وتشتمل على فصول من الفحش والرجس، والدنس ولكنها غاية فى التحليل النفسى للمرأة، والدقة فى وصف المشاهد، والتنويع فى مساق الحوادث

وفى عهد آل (تسنغ) ظهرت أنواع كثيرة من القصة كالقصة العلمية، ويمثلها قصة عنوانها (ثرثرة شيخ قروى يتشمس) للقصصى (هيا كنغ كيو) من كتاب القرن السابع عشر، وقصة أخرى عنوانها (حظ الازهار المنعكسة على الثلج) للكاتب (لى فوتشن) من رجال القرن الثامن عشر، فالأولى تخوض فى أحاديث شتى عن الفلسفة والكتب القديمة وأمانة الوزراء وتقوى الابناء والمكائد والفنون والطب والاخلاق وغير ذلك مما جعلها دائرة معارف هى إلى الدعوى والافتراء اقرب منها الى العلم الصحيح. وأما الثانية فهى بحث علامة جليل عالج فيها كثيرا من المسائل النسائية وعلى الاخص مساواة الجنسين، وهذا فى الأدب الصينى شىء جديد.

والقصة الاخلاقية ظهرت فى هذا الحين، وهى تقص حكايات الممثلين والممثلات، وتصف أخلاق البغايا والمومسات، ثم ظهرت فى القرن التاسع عشر القصة الهجائية فهجم بها الكتاب على الاسرة الحاكمة التى طواها الموت، ورشقوا بسهام النقد طبقة العلماء والموظفين (Les Mandarins). على أن الانواع القديمة كالاقاصيص الخرافية والقصص التحليلية وسير الأبطال استمرت تؤتى أكلها فى عهد آل (تسنغ).

تلك كانت حال القصة الصينية حينما ظهرت بواكير الثورة الأدبية فى القرن التاسع عشر فتفتحت اليوم عن ادب حديث يشعر على حداثته بحقيقته ومصيره.

***

كانت الثورة الصينية ثورة سياسية واجتماعية وثقافية فى وقت معا. ففى السياسة أدت الى سقوط الملكية وقيام الجمهورية، وفى الاجتماع أفضت الى اقتباس الاخلاق الغربية. وفى الثقافة هدت الى اكتشاف العلوم والافكار الأوربية. والفضل فى هذا الاكتشاف للأديبين (ين فو) (١٨٥٣ — ١٩٢١) و (لن شو) (١٨٥٢ — ١٩٢٤) فان الاول نقل الى الصين فلسفة (هكسلى) و (ستيوارت مل) و (سبنسر) و (سميث) و (جنكس) و(جفونس) و (وستراب) و (منتسكيو) ونقل الثانى قصص (ستيفنس) و (ديكنز) و (ولترسكوت) و (كونان دويل) و (واشنطون أرفنج) و (فكتور هوجو) و (دوماس) و (بلزاك) و (سرفنتيس) و (تولستوى) فكان لما ترجماه أثر بالغ فى الفكر الصينى الحديث.

فمنذ الساعة الاولى فكر رسل الثورة الاجتماعية فى اتخاذ القصة وسيلة للدعاية، وقد قال (ليانغ كى تشاو) وهو صحفى من المدرسة الحديثة: «يجب ان نبدأ اليوم بثورة فى القصة، فانا لا نستطيع أن نخلق شعباً جديدا الا بقصة جديدة»

يؤلف فصلا من فصول السيرة وظلت (الينغ هويا) على هذا النمط الأولى حتى جاء (لوبن) ١٣٣٠ ـ ١٤٠٠ فى عهد آل يوان فجعلها فنا، كان يقتبس موضوعاته من التاريخ ولكنه يضيف اليها وقائع واشخاصا من عمل الخيال. وكان يصور أبطاله على نحو مايفعل القصصيون الاوربيون اليوم. كتب (لوبن) عشرات من القصص ولكن أفضلها واجملها قصته المسماة (على شاطيء البحيرة) تقع فى مائة فصل وتدور على مخاطرات بطل يدعى (سونغ كيانغ) مع رفاقه المائة والسبعة ـ وهو شخص تاريخى ورفاقه كانوا ستة وثلاثين ليس غير ـ وكانوا يحتلون (اليانغ شان) ثم ثاروا على اسرة سونغ الحاكمة فهاجموا مدنها وقاتلوا جيشها ونهبوا مقاطعاتها وأصبحوا حكاما فى هذه الارض. وهؤلاء العصاة الفتاك كانوا من خيار الناس فالجأهم الى هذا الموقف عسف الامبراطور ومن هاواه من الخونة.

ولم يكن هم (لوبن) ان يخلق أشخاصا ويصف اخلاقا وانما كان همه فوق ذلك أن يرمى الى غرض أخلاقى، وتلك هى الصفة الغالبة على الآداب الصينية، فالكتابة عند كتاب الصين وسيلة الى الخلق، والشعر عند شعرائها طريق من طرق التربية. والاخلاق عند (لوبن) قائمة على الديمقراطية، فهو يؤلب الاخيار المضطهدين على الاسرة الحاكمة، ويحارب الفروق الاجتماعية بين طبقات الشعب، فلا يعترف الا بصنفين من الناس: الشجعان والاذكياء، وهؤلاء وأولئك ملزمون أن يعملوا لخير الأمة، ولا بأس أن يعيشوا عيش اللصوص وقطاع الطرق ماداموا يذودون بذلك عن المظلومين والمحرومين.

ثم ظهرت بعد ذلك طائفة كبيرة من القصص على عهد آل (منغ) من سنة ١٣٦٨ — ١٦٦٢ م ولكن قصتين اثنتين من بينها تلفتان النظر وتسترعيان الخاطر وهما (حكاية رحلة الى بلاد المغرب)، و(زهور الشر فى أصيص من الذهب) فالأولى قصة وهمية كثيرة المخاطر الخارقة والأوهام العجيبة. والثانية قصة نفسية (بسيكولوجية) لمؤلف مجهول تدور على ما وقع من المخاطر الغرامية لغنى من الاغنياء اسمه (سى من كنغ) وهو متبطل شهوانى محصن ولكن له اخدانا كثيرات، والقصة تعرض بالتفصيل حياة هؤلاء الخليلات الخاصة، وتشتمل على فصول من الفحش والرجس، والدنس ولكنها غاية فى التحليل النفسى للمرأة، والدقة فى وصف المشاهد، والتنويع فى مساق الحوادث

وفى عهد آل (تسنغ) ظهرت أنواع كثيرة من القصة كالقصة العلمية، ويمثلها قصة عنوانها (ثرثرة شيخ قروى يتشمس) للقصصى (هيا كنغ كيو) من كتاب القرن السابع عشر، وقصة أخرى عنوانها (حظ الازهار المنعكسة على الثلج) للكاتب (لى فوتشن) من رجال القرن الثامن عشر، فالأولى تخوض فى أحاديث شتى عن الفلسفة والكتب القديمة وأمانة الوزراء وتقوى الابناء والمكائد والفنون والطب والاخلاق وغير ذلك مما جعلها دائرة معارف هى إلى الدعوى والافتراء اقرب منها الى العلم الصحيح. وأما الثانية فهى بحث علامة جليل عالج فيها كثيرا من المسائل النسائية وعلى الاخص مساواة الجنسين، وهذا فى الأدب الصينى شىء جديد.

والقصة الاخلاقية ظهرت فى هذا الحين، وهى تقص حكايات الممثلين والممثلات، وتصف أخلاق البغايا والمومسات، ثم ظهرت فى القرن التاسع عشر القصة الهجائية فهجم بها الكتاب على الاسرة الحاكمة التى طواها الموت، ورشقوا بسهام النقد طبقة العلماء والموظفين (Les Mandarins). على أن الانواع القديمة كالاقاصيص الخرافية والقصص التحليلية وسير الأبطال استمرت تؤتى أكلها فى عهد آل (تسنغ).

تلك كانت حال القصة الصينية حينما ظهرت بواكير الثورة الأدبية فى القرن التاسع عشر فتفتحت اليوم عن ادب حديث يشعر على حداثته بحقيقته ومصيره.

***

كانت الثورة الصينية ثورة سياسية واجتماعية وثقافية فى وقت معا. ففى السياسة أدت الى سقوط الملكية وقيام الجمهورية، وفى الاجتماع أفضت الى اقتباس الاخلاق الغربية. وفى الثقافة هدت الى اكتشاف العلوم والافكار الأوربية. والفضل فى هذا الاكتشاف للأديبين (ين فو) (١٨٥٣ — ١٩٢١) و (لن شو) (١٨٥٢ — ١٩٢٤) فان الاول نقل الى الصين فلسفة (هكسلى) و (ستيوارت مل) و (سبنسر) و (سميث) و (جنكس) و(جفونس) و (وستراب) و (منتسكيو) ونقل الثانى قصص (ستيفنس) و (ديكنز) و (ولترسكوت) و (كونان دويل) و (واشنطون أرفنج) و (فكتور هوجو) و (دوماس) و (بلزاك) و (سرفنتيس) و (تولستوى) فكان لما ترجماه أثر بالغ فى الفكر الصينى الحديث.

فمنذ الساعة الاولى فكر رسل الثورة الاجتماعية فى اتخاذ القصة وسيلة للدعاية، وقد قال (ليانغ كى تشاو) وهو صحفى من المدرسة الحديثة: «يجب ان نبدأ اليوم بثورة فى القصة، فانا لا نستطيع أن نخلق شعباً جديدا الا بقصة جديدة»

ولكن الصعوبة الوحيدة . هي اللغة .فان لغة الكتابة تختلف عن لغة التخاطب،ولغة التخاطب نفسها تختلف فى اقليم عنهافى اقليم بل فى مدينة عنهافى مدينة.فالمدرسة الحديثة حاولت أن تقرب بين لغة الكتابة ولغة الخطاب.ولكن أى لغة من لغات التخاطب تجعلها نموذجا ومثلا ؟ وهل تضطلع حروف الهجاء الصينية ـ وهى لحسن الحظ واحدة فى جميع المدن والأقاليم ـ بهذا الاصلاح ؟ان توحيد التعليم العام يقتضى لغة كتابية يقبلها كل الناس . واللغة المندرينية لا يمكن أن تكون على حالتهاهى تلك اللغة.

ففى سنة ١٩١١ م أسست الجمهورية الناشئة مجمعاً عاما أصلح هذه اللغة وجعلها لغة وطنية ، ثم وضع لها تسعاً وثلاثين علامة صوتية،تساعدها على الانتشار بين طبقات الشعب، ومنذ ذلك الحين أصبح فى امكان الكاتب أن يؤلف القطع الادبية،ويكتبها بالحروف الصينية. فتتفق مع اللغة الوطنية ؛وهذه اللغة المكتوبة الجديدة التى يفهمها الصينيون على السواء قد أطلقوا عليها اسم (بو هويا) أى اللغة الواضحة . والادب الصينى فى هذه اللغة العامة لا يرجع تاريخه الى أكثر من اثنتى عشرة سنة

وليس هذا كل الاختلاف بين الادب الحديث والأدب القديم . فان الفكر الصينى قد تغير جملة واحدة، فرجال المدرسة القديمة كانوا يصرون على تقليد القدماء تقليدا عقيما جر عليهم الغرابة والتقيدو الجفاف،حتى جاء فى سنة ١٩١٦ أحد المحدثين وهو (هوشى) فاقترح ثمانى وسائل لتجديد الادب القديم كانت أساسا لبناء الادب الحديث وهى (١) ألا يلمح الادباء الى شىء من التاريخ والأدب والأساطير فى غضون النثر والنظم (٢) الا يستعملوا الحكم المأثورة والأمثال السائرة اتقاء للابتذال (٣) الا يسرفوا فى البحث عن الاقيسة النحوية والمقابلات البيانية وعلى الأخص فى الشعر(٤)الا يتجنبوا الالفاظ العامية والتراكيب الشعبية (٥) أن يعنوا أشد العناية بالانشاء (٦) الا يئنوامالم يحسوا فى أنفسهم الحاجة الى الانين (٧) ان يعتمدوا بشخصياتهم فلا يقلدوا القدماء فى شىء (٨) ألا يكتبوا إلااذا جال فى خواطرهم ما يريدون أن يكتبوه

فاذا كانت الفلسفة الصينية اليوم فى وقوف ، والتاريخ غير موجود،والانتاج المسرحى قليل القيمة،والشعر لم ينطلق بعد من أسار التقليد،فان القصة تنمو وتزدهر معتمدة فى تجديدها وتأييدها على ثلاثين مجلة تحلها من صفحاتها المحل الاول، أهمها القصة الجديدة(LeNouveau Roman)ومجلة القصة الصغيرة (magazine The short stary)

القصة الصينية الحديثة واقعية(Réaliste) كالقصة الغربية فلاتأبه مطلقا للتقاليد ولا تتصل بالاساطير والخوارق.وكتابها لا تعوزهم القرائح الخصبة ولبعضهم قصص جليلة الشأن عظيمة الخطر،ولكنك لا تجد فيها ذلك السحر الأخاذ،ولا ذلك الجو الاثيرى النقى ،ولا تلك الخفة التى كانت تميز القصة القديمة وتلونها باللون الصينى الخالص.فان القصة الحديثة اقتبست من القصة الغربية الشكل والاصطلاح والروح أيضاً،والمشابهة شديدة بين الحكايات الحديثة فى الصين وبين بعض الاقاصيص فى أمريكا، واذا قرأت حكاية (كونغ يى كى) للكاتب (لوسين) حسبتها مكتوبة بقلم شروود اندرسون

من القصصيين المعاصرين (تشنغ تسوينغ) وهو كاتب وافر الانتاج، ويعزون هذه الوفرة الى انه يشترى قصص المفلوكين من الادباء بثمن بخس ثم ينشرها تحت اسمه. وقد انفرد بمعالجة نوع واحد من المشاكل الاجتماعية،وهو تضارب العواطف بين ثلاثة أشخاص رجلين وامرأة أو امرأتين ورجل وليس فى قصصه أصالة فكرية ولا لأسلوبه قيمة أدبية ولكنه مع ذلك أكثر الكتاب قراء وأبعدهم سمعة .

ثم(كوموجو)وهو زعيم المذهب العمالى Ecole Prolétarienne الذى يعنى اتباعه بمعالجة الموضوعات الخاصة بالفقراء الذين، يعيشون على عملهم وهو يدير اليوم حركة الدعاية الشيوعية ضد الحكومة،ويؤلف فى سبيل ذلك الاقاصيص والروايات والخطب ولكن حظها من الفن قليل .فاذا نسى السياسة وكتب للأدب تكشف لك عن قصصى سمح القريحة واضح الطريقة .

ثم (يى شاو كيون) و(يو تافو) وهما قصصيان من الطراز الاول ،ولا يعالجان غير القصة الاخلاقية ، يصفان فيها جوانب الفقر والفسق والبؤس من حياة الشعب الصينى فى المدن الكبرى

ثم (ينغ ناغان) وهو معدود فى طبقة الكتاب النابهين

ولكن أرفع القصصيين المحدثين ذكرا وأسماهم مكانة هو (لوسين) له مجموعتان من الاقاصيص عنوان الاولى (صرخات الحرب) وعنوان الثانية (اضطراب البال) ونتاجه على قلته موسوم بسمة الجمال والعبقرية

وسنترجم فى الاعداد المقبلة قصة له وأخرى لينانغ ناغان تمثلان الروحين الشائعين، والاتجاهين المختلفين فى القصص الصينى الحديث.

في الأدب الغربي

بين بين

للدكتور طه حسين

الأصل في الكلام أنه وسيلة تتوسل بها الى الاعراب عما تريد ان يفهمه عنك غيرك، فهماً واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض. والكلام كله يشترك في هذا الاصل أو قل كان يشترك في هذا الاصل سواء منه ما كان شعراً وما كان نثراً، وسواء منه ما تحدث الى العقل وما تحدث الى القلب والشعور. فاذا خرج الكلام عن أصل البيان والتبيين هذا فكان فيه غموض أو التواء فمصدر ذلك قصور في المتكلم أو الكاتب أو قصور في السامع أو القارىء، قصر ذاك فلم يحسن الاعراب عما يريد، أو عجز هذا فلم يحسن الفهم لما ألقي اليه. وقد يكون الغموض مقصوداً والالتواء متعمداً، لأن للكاتب أو الشاعر أو المتكلم غرضاً يدفعه إلى أن يتكلف الغموض ويتعمد الالتواء ولكن هذا الكلام الغامض الملتوي واجد على كل حال من يقرأه أو يسمعه فيفهمه فهماً صحيحاً مستقيماً

هذا هو الاصل في الكلام ولكن يظهر أن الترف الفني الذي ترقى بنا الحضارة اليه، وتتنقل بنا في درجاته المختلفة يأبى أن يقر الاشياء في أصولها أو يدعها ميسرة لما خلقت له. فكما أن الأصل في الطعام والشراب الغذاء والري، ولكن الحضارة والترف قد خرجا بهما عن هذا الأصل الى ما يتجاوز الغذاء والري الى غيرها من اللذات التي يجدها الطاعمون والشاربون فقد خرج الترف الفني في هذه الايام بالكلام عن أصله المألوف الى شيء آخر غير البيان والتبيين، ونشأت طائفة من الكتاب والشعراء لا تكتب النثر ولا تقرض الشعر لتقول شيئاً واضحاً جلياً أو لتقول شيئاً ينتهي بعد الجهد والعناء الى الوضوح والجلاء. وانما تكتب وتنظم لتثير في نفسك ألواناً من المعاني وضروباً من الخواطر، ولتهيج في قلبك اشكالاً من العواطف وفنوناً من الشعور، تحسها فتلذ لها وتألم، وتبتهج لها وتضيق بها. وتفهمها حيناً وتعجز عن فهمها أحياناً، وتذهب مذاهب متعددة غريبة متباينة في فهم هذا الكلام الذي يلقى اليك وتأويله وتخريجه فتقر ما تنتهي اليه ثم يبدو لك فتعدل عنه، ثم تقرأ هذا الكلام مرة أخرى فاذا أنت تذهب في فهمه وتأويله وتخريجه مذاهب لم تكن قد ذهبتها من قبل، ثم تتحدث الى من قرأ هذا الكلام نفسه فاذا هو يخالفك في الفهم كل الخلاف أو يخالفك في بعضه ويوافقك في بعضه الآخر. ثم تتحدثان الى ثالث قد قرأ هذا الكلام فاذا له فيه رأي لم ترياه ولم يخطر لكما على بال ولعلكم ان سألتم الكاتب أو الشاعر الذي ألقى اليكم وإلى الناس هذا الكلام عما أراد به حين كتبه أو نظمه لم تجدوا منه جوابا مقنعاً ولا رداً مريحا. أو وجدتم أجوبة مختلفة وردوداً متباينة، لأنه هو لا يعرف بالضبط ماذا أراد حين كتب أو نظم أو كان يعرفه أثناء الكتابة والنظم ثم ذهب عنه بعد ذلك، أو كان يعرفه فلما أتم الكتابة والنظم وترك ما كتب ونظم حيناً عاد اليه يقرأه فاذا هو يفهم منه غير ما أراد ويتبين منه غير ما كان قد قصد اليه

وقد يخطر لك أني اقصد بهذا النحو من الكلام الى شيء من العبث أو الدعابة، فذد عن نفسك هذا الخاطر فلست بصاحب عبث ولا دعابة. وإنما أنا صاحب جد كل الجد وأنا أكتب هذا الكلام بعد أن فرغت من قراءة قصة لذيذة قيمة ممتعة للكاتب الفرنسي جورودو. صاغها في صيغة القصص التمثيلي ووضع لها العنوان الذي وضعته أنا لهذا الفصل، ونشرها في عددين من مجلة باريس

وقد قلت إن هذه القصة لذيذة قيمة ممتعة وانا اريد بما

قول، ولعلى مقتصر حين اكتفى بهذه الاوصاف وحسبك أنى قرأتها ثلاث مرات وسأقرؤها الرابعة ان أذن بذلك الوقت وسمحت به الظروف. وقد وجدت فى كل قراءة لذة ومتاعا وأنا واثق بأنى سأجد فى القراءة الرابعة لذة ومتاعا. ولكنى على ذلك كله لم أفهم ماأراد الكاتب أو قل فهمت أشياء مختلفة وأغراضا متباينة، ماأظن أن الكاتب قد أراد اليها أو فكر فيها. وقد أسأت الظن بنفسى فاقرأت هذه القصة قوما آخرين وجدوا فيها لذات لم أجدها ومتاعاً لم أشعر به. ولكنهم كانوا مثلى عاجزين عن ان يفهموا بالدقة او بالتقريب ماأراد اليه الكاتب حين كتب قصته هذه البديعة الغريبة. ثم انتهى بنا الامر الى ان تفقنا على ان الكاتب لعله لم يرد شيئاً اكثر من أن يثير فى نفوسنا وقلوبنا هذه الخواطر والعواطف وهذه الاهواء والميول. وعلى ان الكاتب لعله أراد أن يذهب بالكلام مذهب الموسيقيين بالموسيقى، فلا يقصد إلا الى أن يثير فى نفسك ضروبا من العواطف والاهواء حول فكرة خطرت له وأثرت فيه، فصورها كما استطاع فى هذه الالحان التى قد تطابق ما فى نفسه وقد تقصر عنه وقد تتجاوزه وتربى عليه. ولكنها على كل حال قلما تنقل الى نفسك صورة اصحيحة مطابقة لما كان فى نفسه، وقلما تثير فى النفوس المختلفة عواطف واهواء مؤتلفة أو متقاربة تقاربا شديداً. انما قصاراها ان تدفع بك فى عالم من الخيال لا حد له. فأنت تتصور فيه ما تشاء. وانت تحس فيه ضروبا متباينة من الاحساس. وقد تسمع اللحن الموسيقى الآن فيثير فى نفسك لونا من الخواطر وتسمعه بعد ذلك فيثير فى نفسك لونا آخر. وكذلك يذهب أصحاب الكلام بالكلام حتى يجعلوه فنا من النغم وضربا من الموسيقى، وحتى يستطيعوا ان يلقوه اليك فاذا انت لا تفهم منه شيئا دقيقا جليا كما تعودت ان تفهم من الكلام. ولكنك على ذلك لا ترغب عنه ولا تنفر منه بل تؤثره ولا تعدل به شيئا.

فى هذه القصة خداع غريب خطر لأنه يخيل اليك انك تفهم ما تقرأ على وجه من وجوه الفهم فتمضى فى القراءة متابعا فهمك هذا مطمئنا اليه، ولكنك لا تلبث ان تضل الطريق. واذا انت فى واد غير ذلك الوادى الذى كنت تمضى فيه. ومايزال كذلك ينقلك من واد الى واد ويثب بك من مذهب فى الفهم الى مذهب آخر حتى تنتهى القصة. واذا انت تسأل نفسك ماذا فهمت انت منها وماذا اراد الكاتب بها اليه.

ولا بد لى من ان ألخص لك المقدار الذى يستوى الناس جميعاً فى فهمه من هذه القصة حين يقرأونها وهو هذه الصورة الظاهرة التى يقسمها الكاتب الى مناظر وفصول. ولكنى احب ان تفهم ان هذا التلخيص لا يعطى شيئاً ولا يصور ما اراد الكاتب. وقد قرأت لجماعة من النقاد فما ارى انهم فطنوا لما قصد اليه فى دقة ووضوح.

كل شىء فى القصة مبهم قد تعمد الكاتب ابهامه، حتى الاماكن التى تقع فيها حوادث القصة، والاوقات التى اختارها الكاتب لوقوع هذه الحوادث. فأكثر ما يقصه عليك الكاتب يجرى فى مكان غير محدود ليس هو داخل المدنية وليس هو شديد البعد منها. وكأنه فى طرف من اطرافها حيث تتصل عمارات المدن بالفضاء الواسع الطلق. وهو فى غابة أو فى شىء يشبه الغابة، تتبين فيه الاشجار ولكنك لا تضيق بها ولا تحس كثافتها والتفافها. والمكان واسع قد كسا أرضه العشب وانتثر فيه زهر كثير مختلف. ولا تقع حادثة من حوادث القصة فى أول النهار أو فى وسطه حين تستطيع العين ان تحيط بالاشياء وتحقق النظر فيها وحين تستطيع النفس ان تتابع العين فتفكر فى شىء بين محدود. وانما تقع الحوادث فى الاصيل حين يختلط آخر النهار باول الليل، وحين يضطرب على الاشياء رداء رقيق جدا من الضوء، وحين تتفرق النفس كأنها تريد ان تتابع الشمس فى مسراها من وراء الظلمة الكثيفة المقبلة.

واذا اختار الكاتب هذا المكان المبهم، وهذا الوقت المبهم لم يكن من العسير عليه ان يختار اشخاصا ان ظهرت صورهم المادية ظهورا واضحا فى بعض الاحيان، فان صورهم النفسية وما يصدر عنها من الاحاديث والخواطر مبهمة شديدة الابهام ملائمة أشد الملاءمة لما يحيط بها من زمان ومكان. ولعل احسن مظهر لبراعة الكاتب انما هو انشاء هذه البيئة الغامضة الواضحة المبهمة الجلية التى هى بين بين.

موضوع القصة نفسه يقتضى هذا الموقف المتوسط بين الوضوح والغموض، فنحن فى مدينة صغيرة من مدن فرنسا كانت هادئة مطمئنة تجرى حياة اهلها فى اضطراد لا نتوء فيه كأنه السهل المنبسط. ثم يضطرب امرها فجأة وتحدث فيها حوادث غير مألوفة كأن شيطانا ماكرا قد اشرف على امورها فقلبها رأسا على عقب. تعودت ان تجيل بين اهلها فى كل عام طائفة من اوراق «النصيب». فاذا جاء موعد القرعة فقد تعودت المدينة أن تخرج القرعة لاغنى اهلها إلا فى هذه السنة فقد خرجت لرجل فقير. تعودت ان تؤدى عملية الاحصاء من حين الى حين كما تؤديها غيرها من المدن. فاذا سئلت الاسر عن عددها ردت باجوبة تلائم العرف والقانون الا فى هذا العام، فالعمدة يستحى ان يقدم الى المركز أوراق الاحصاء لأن الناس قد احصوا انفسهم، وكلابهم، وماشيتهم. ولأن الرجال لم يضعوا زوجاتهم فى اجوبة الاحصاء، وانما وضعوا خليلاتهم. تعودوا ان ينهر الرجل صبيه فلا يثور الصبى، وان يزجر كلبه فلا يثور الكلب، أما فى هذا العام فالصبيان ثائرون بآبائهم وأمهاتهم، والكلاب ثائرة باصحابها وسادتها. وعلى هذا النحو اضطرب فى المدينة كل شيء. ومصدر الاضطراب فيما يظهر اذاشاعة ملأت المدينة بأن شبحا يظهر لبعض أهلها اذا تولى النهار واقبل الليل. وقد صدق الناس هذه الاشاعة واطمأنوا اليها فكلهم يلتمس الشبح وكلهم يراه، وكلهم يخافه، ويحتاط للقائه. وانتهى امر هذا الاضطراب الى باريس فأرسلت الحكومة المركزية مفتشا الى هذه المدينة يبحث ويستقصى، وأمرته بان يحسم الداء اذا انتهى الى أصله. وفكرة الحكومة أن هذا عارض من الضعف العقلى ومن الشعوذة قد ألم بهذه المدينة، فيجب ان يرد عنها وأن يبسط عليها سلطان العلم والعقل. ويقبل هذا المفتش ممتلئا بهذه الفكرة فلا يكاد يتحدث الى العمدة والصيدلى ومراقب المكاييل والموازين حتى يروعه تصديق المدينة لهذه الخرافات، وحتى يشتد عزمه على ان يشمر فى الحرب لهذا السخف حتى يقضى عليه. وهو ينكر وجود الاشباح والارواح، وهو يتحدى الاشباح والارواح ويطلب اليها أن تقلق طائرا ولو يسيرا عن غصن من هذه الاغصان وهو يحصى ثلاثة فلا يتم الاحصاء حتى تسقط قلنسوته عن رأسه! فيقول: ما أشد الريح! ويجيبه أصحابه: ليس فى الجو أثر للنسيم!

وهو يعود الى التحدى فى لفظ غليظ بشع ويطلب الى الارواح والاشباح أن تمسه بأذى ولو ضئيل. ويحصى ثلاثة فلا يكاد يفرغ من الاحصاء حتى تزل قدمه به فيهوى! فاذا نهض قال ما أشد الرطوبة! فيجيبه أصحابه، ان عهدنا بالمطر لبعيد! وبهذا يتحقق الخلاف بين ممثل الحكومة المركزية وأهل المدينة. هو صاحب علم وعقل وهم أصحاب خيال وإيمان بالخرافات.

ولكن علم المفتش أولى وعقله محدود. فهو يؤمن بما فى الكتب ويسلم به مقلدا فيه وهو يرى الايمان به والتعصب له سياسة تلائم الديمقراطية وتوافق نظم السياسة الحديثة. وسذاجة اصحابه الذين يحاورهم ظريفة طلقة ليس فيها غلظ ولا ضيق، وانما هى سذاجة ذات أجنحة تسمو بأصحابها حتى تتجاوز بهم حدود المألوف المعقول وكأنها قد اتخذت أجنحتها من الخيال وأصبحت شعرا كلها، فالحوار اذا انما هو بين الحقائق الواقعة المقيدة التى لم تبرأ من الجمود ولم تسلم من القصور، وبين الخيال المطلق الحر الذى أخذ بحظ عظيم من الرقى والصفاء والتهذيب. الحوار اذا بين الحياة اليومية المألوفة يمثلها شخص المفتش وبين الشعر يمثله هؤلاء الناس. بل يمثله معهم أكثر أهل المدينة وتمثله معهم بنوع خاص ايزابيل هذه الفتاة التى تقوم على تعليم البنات مكان المعلمة المريضة والتى تذهب فى تعليم الفتيات مذهبا غريبا ملائما كل الملاءمة للطبيعة الحرة والشعر الطلق. فهى لا تضطرهن الى المدرسة وإنما تتخذ من الغابات والحقول مدرسة تلقى عليهن فيها علما غريبا يضيق به المفتش الذى يمثل حياة كل يوم. وهى تلقى اليهن أسماء غريبة تدل بها على ألوان العلم فى الفلك والطبيعة والنبات والحيوان وهى لا تتحرج فى أن تحملهن على أن يتشكلن بأشكال الحيوانات المختلفة ويتسمين بأسمائها ويسرن سيرتها كل تعليمها يمتاز بأنه شعر، ويقوم على تحبيب الطبيعة الى التلاميذ. ولا يكاد المفتش يرى هذا ويتبينه حتى ينفر منه ويثور به ويرى أنه أصل هذا السخف الذى سيطر على المدينة ونشر فيها الفساد والاضطراب. فيعزل الفتاة إيزابيل من منصب التعليم، ويأمر أن يجرى التعليم فى المدرسة على مايجرى عليه فى المدارس الاخرى فى أضيق حدود التقاليد. وقد أنبىء بان مصدر هذه الاشاعة التى اضطربت لها المدينة انما هو هذه الفتاة المعلمة، فهى التى ترى الشبح وتناجيه اذا كان المساء! وقد ثبت له ذلك. فأرصد للفتاة وطائفها ومعه نفر مسلحون حتى اذا كان المساء أقبلت الفتاة وأقبل الطائف فتحدثت اليه وتحدث اليها. وهما فى حديثهما واذا نار تطلق فيهوى

الطائف الى الارض كما يهوى القتيل . ويظهر المفتش وأصحابه وهم لايشكون فى أن هذا الطائف ليس إلا شابا أراد أن يغوى الفتاة فاتخذ صورة الطائف وشكل الخيال . ويحنو بعضهم على القتيل فلا يرى جثة وينظر القوم فاذا الطائف يرتفع فى الجو شيئاً فشيئاً حتى يسترد صورته الاولى ثم يقول : الى غد ياإيزابيل! الى غدفى غرفتك اذا كانت الساعة السادسة !

فاذا كان الغد أقبلت الفتاة الى غرفتها قرب الموعد المضروب وأقبل مراقب المكاييل والموازين فأخذ يتحدث اليها حديثا فيه حب ، فتريد أن تصرفه عن نفسها فيأبى ويعرض عليها الزواج ، وهما فى الحديث وإذا الطائف قد أقبل وطلب اليه أن ينصرف ويدعه مع الفتاة . ولكن الرجل يأبى ويلح فى الاباء ويكون بينه وبين الطائف حوار عنيف دقيق أيهما يستأثر بالفتاة ،والفتاة مترددة بين هذا الرجل الذى يمثل الحياة وهذا الطائف الذى يمثل الموت ولكن ميلها إلى الحياة ينتصر آخر الامر فينصرف الطائف مهزوما وتهوى الفتاة فى غشية كأنها الموت . ويقبل المفتش والعمدة والصيدلى والتلميذات وبعض أهل المدينة وكلهم يريدان يستنقذ الفتاةمن هذا الاغماء . وكلهم يقترح لذلك دواء وطبا ولكن الصيدلى يتقدم اليهم جميعاً فى أن ينسوا الفتاة وينصرفوا الى انفسهم. ويستأنف كل منهم حياته فى هذه الغرفة كما لو كان بعيدا عنها فهؤلاء يلعبون الورق وهؤلاء الفتيات يتحدثن فيما بينهن حديثا عاديا ، وهاتان الفتاتان تتحدثان فى الأزياء، وهذا المفتش ينطق من حين الى حين بألفاظ تمس العلم والتعليم والديمقراطية وقد استحالت الغرفة صورة مصغرة للمدينة. واذا الفتاة المغمى عليها تفيق شيئاً فشيئاً حتى تشترك فى الحديث عن الازياء ويأبى من يخبر بأن الامور قد استقامت فخرجت قرعة النصيب للاغنياء دون الفقراء،ويعلن الصيدلى فى الفاظ تذكر بقصة فوست ان قد انتهت هذه الحال التى كانت بين بين!

هذه صورة غليظة جداً لهذه القصة لادقة فيها ولا تحديد ولا المام بشىء مما فيها من مواطن الشعر ومظاهر الجمال الفنى الرائع . ولا المام فيها أيضاً بهذه المواقف الكثيرة التى يعرض فيها الكاتب للحياة اليومية على اختلاف فروعها بالنقد اللاذع المر ولكنك تستطيع أن تسأل نفسك كما سألت نفسى وكما سأل غيرى من القراء نفسه حين قرأ هذه القصة ، ماذا اراد الكاتب أن يصور فيها ؟ أتراه اكتفى بنقد ما نقد من الوان الحياة الفرنسية ولم يرد غير ذلك!الا فان هذا النقد عارض فى القصة يكفى أن تنظر فيه لتعلم ان الكاتب لم يتخذه غرضاً من اغراضه الاولى اتراه رمز بهذا الطائف الى شىء مما يعرض للناس فى حياتهم وجعل الفتاة رمزاً للناس جميعاً او لطائفة من الناس ؟ ولكن ماعسى ان يكون هذا الشىء الذى اتخذ الطائف رمزاً له اهو الحب ؟اهو الموت ؟ اهو الأمل ؟ اهو المثل الاعلى ؟ اهو شىء غير هذا كله ؟ اتراه إنما اراد ان يصور حالا من احوال الناس تعرض لهم فى طور من اطوار حياتهم حين يكونون بين النوم واليقظة ، او حين يكونون بين الصبا او الشباب وبين الاكتهال واكتمال السن . اتراه اراد ان يصور لناحياة فتاة مريضة بنوع من انواع الامراض العصبية تتأثر بالوهم وتتبعه حتى تمضى فى اثره الى امد بعيد ثم لاترد الى الحياة الواقعة إلا فى هدوء ورفق وإلا بأن تحيط بها الحياة الواقعة احاطة متصلة لاتكلف فيها ولا جهد كل ذلك ممكن،ولعل شيئا غير ذلك كله ممكن ايضا . ولعل الكاتب (وقد هممت ان املى الشاعر) لم يرد كما قلت إلا ان يخلق حولك هذه البيئة الشعرية التى تطلقك من قيود الحياة الواقعة وتسلمك الى الخيال يمضى بك حيث يشاء ساعة من نهار او ساعة من ليل . وقد ذهب الشعراء الى هذا النحو من الفن منذ عهد غير قصير،فمنهم من جعل الشعر موسيقى تلذ السمع اولا، وتثير فى النفس لذة النغم الموسيقى بعد ذلك واعرض عن المعانى اعراضا شديدا او هينا . ومنهم من اعرض عن هذه الموسيقى الظاهرة التى يتأثر بها السمع قبل كل شىء واتخذ الشعر مفتاحا يفتح لك به ابواب اللانهاية كما يقول الشعراء ووسيلة يخلق لك بها هذه البيئة الفنية العليا التى ترتفع بها وقتا ما عن الحياة والاحياء

وأخذ الكتاب يذهبون بالنثر مذهب الشعراء بالشعر ولكن كاتبنا قد تجاوز مذهب الكتاب الذين يقلدون الشعر والشعراء فى النثر الذى يتجه الى القراء ليس غير ،وسلك هذا المذهب الشعرى بالنثر التمثيلي وبالتمثيل نفسه .وأنت فى غير حاجة الى أن أبين لك الفرق بين النثر الذى يذهب فيه صاحبه مذهب

الشعراء والموسيقيين والذى يتجه الى الناس جميعا ولكنهم يقرأونه متفرقين ويتأثرون به متفرقين وبين النثر الذى يذهب به صاحبه هذا المذهب ويتجه به إلى طبقات من الناس يجمعهم فى مكان واحد، هو الملعب وينتزعهم من الحياة الواقعة معا ويسمو بهم معا الى عالم الشعر والخيال ويتخذ لهذا سبيلا واحدة هى التمثيل . وأظنك توافقنى على أن فى هذا النوع من الاقدام والابتكار جراءة فنية قيمة . ولكن قد رأينا الآثار التى تتركها قراءة هذه القصة فى نفس القراء وكم نحب أن نرى الآثار التى تتركها تمثيل هذه القصة فى نفس النظارة . ولكن أين نحن من هذا وأين هذا منا فى مصر الآن ؟

وأنا أريد ان اعرض عليك منظراً من مناظر هذه القصة لم أختره اختياراً وانما هو كغيره من المناظر التى تستحق كلها أن تترجم وأن تتخذ نموذجا ومثلا لهذا الفن التمثيلي الجديد . وهذا المنظر حوار بين ايزابيل وبين الطائف :

الطائف — أكنت تنتظريننى ؟

إيزبيل — لاتعتذر ! فلو كنت طائفا مثلك لوقفت عند هذا الشفق وعند هذه الاودية، حيث لم أستطع الى الآن أن أحمل الا جسما كثيفاً . اذا لاستوقفتنى الغدران والنبات الملتف وكل مالا أقف عنده الآن ! اذا لما كنت هنا الآن لو أنى أستطيع مثلك ان أطوف بظلي كلما لا أستطيع إلا أن أمسه أو أراه ! اذا لاتخذت لنفسى جسما من الاشياء كما أهوى عصفوراً على الغصن مرة ! أو طفلا مرة أخرى ! او انحرف مرة ثالثة فأتقمص عوداً مزهرا من النسرين . انما الاحتواء هو القرب الصحيح... ولكنى ألومك لأنك أقبلت هذا المساء وحدك ، وحدك دائما لم تستطع ان تمس احداً من ذويك ولا أن تحمله على صحبتك !

الطائف : لم أستطع .

ايزابيل : لقد فكرنا أمس بعد كل هذا الاخفاق ان اقدر الاشياء على ان يهيجهم ، ويؤثر فيهم ، ويوقظ ما يمكن ان يكون اعصاب الطيف ، قد يكون صيحة طويلة ، وشكوى متصلة متشابهة ، تتردد فى طول واتصال . كهذه الصيحة الحقيقية أو التى نحلم بها والتى تصدر عن القطار فتوقظنا احيانا مع الفجر وتردنا الى الاحياء . أو كصيحة السفينة أثناء الليل فى الخلجان، تلك الصيحة التى تبلغ حتى الاسماك الرخوة فى القاع . ابعثت هذه الصيحة ؟ أأنفقت يقظتك فى بعثها ؟

الطائف : نعم !

ايزابيل : انت بنفسك ؟ انت وحدك ؟ ولم تلحق بصوتك شيئا فشيئا ألاف من اصوات تشبهه ..

الطائف : لقد اصطدمت بنوم الموتى .

ايزابيل : ايناموت ؟

الطائف : ايكون هذا نوما ؟ لقد تسود فى اكثر الاحيان حيث يجتمعون رعشة، ثم ينساب فيهم نشاط شديد ، حتى لقد ينبعث منه شىء يشبه الصوت أو انعكاس الضوء فاذا اقبل عليهم الطارقون المحدثون انغمسوا فى اضطراب لذيذ تهدأ له بقية حياتهم يهزهم دائما ترجح الارض الخفيف . ولكن ربما اتصلت جماعتهم كلها ، فكأنها قطعة من الثلج قد غمرها نوم الشتاء فاذا هبط اليها الموتى الوافدون غرقوا فيها مع شعاع يرافقهم ، لان نوم الاحياء شمس وبهجة .

ايزابيل : اكانوا كذلك امس ؟ ايتصل ذلك زمنا طويلا ؟

الطائف : قرونا.. ثوانى

إيزابيل : أليس من أمل فى المعونة

الطائف منهم ، لا اظن .

ايزابيل : لا تقل هذا ! ان بين الذين قضوا من حولى من احسست انهم قد ذهبوا الى غير رجعة ومحيت اشخاصهم من كل حياة ومن كل موت . لقد ارسلتهم على العدم كما ارسل الحجر . ولكن بينهم من وجهتهم الى الموت كأنما وجهتهم فى مهمة ، أو كأنما كلفتهم محاولة ، يظهر الموت فيها وكأنه اقصى غايات الثقة . فكان يضطرب حول المقابر جو السفر والاماكن المجهولة . ولم اكن اميل الى ان اودعهم باللفظ بل بالاشارة . وكنت احس اثناء المساء كله كأنهم يبحثون عن اقليم جديد وعن بيئة جديدة . وكانت الشمس مشرقة ، وكنت اراهم هناك يناموت فى شمسهم الجديدة . وكان المطر يسقط وكانوا يتلقون القطرات الاولى من امطار الجحيم . فلن تقنعنى بأن هؤلاء ينسون أو يسقطون متى انتهوا الى مستقرهم ؟

الطائف : لم يصلوا لم ارهم .

ايزابيل : ولكنك انت نفسك تلقى السلاح ؟ وتكتفى من الامل والرغبة بأن تهيم طائفا فوق مدينة ضئيلة

الطائف : المهمة خطيرة :

ايزابيل : ومع ذلك فها أنت ذا .

الطائف : إن بين الموتى من ينام وكأنه يقظان .

ايزابيل : إن هذا النائم المستيقظ يستخفى مع الصبح وما زلت مقيما .

الطائف : لقد جذبتنى . لقد اوقعتنى فى الشراك .

ايزابيل : اى شراك ؟

الطائف : ان عندك لشركا يجذب اليه الموتى .

ايزابيل : وانت ايضا ترانى ساحرة

الطائف : ان سحرك لطبيعى حتى لكأنك قد عرفت فيم يفكر الموتى . فأنت لا تهيئين لهم ذكريات ولا صوراً وانما تهيئين لهم الشعور بانعكاس الصور وأجزاء الضوء قد استقر على زاوية من الموقد، على أنف هر، أو على ورقة كأنها الحطام الضئيل يطفو على الطوفان ..... اتريننى مصيبا ؟

ايزابيل : واذا ؟

الطائف : واذا فكل غرفتك فى الظاهر غرفة للاحياء، لفتاة حية من أهل الاقاليم، ولكن من يحقق فيها النظر يرى أن كل شىء قد قدر لتكون هذه العلامة من الضوء على الاشياء المألوفة على إناء من الصينى أو مقبض من المقابض قد استبقى دائما بالشمس أو النار فى النهار ، وبالمصباح أو القمر فى الليل. هذه هى حبالتك وقد كان حقا على ان احتاط حين رأيتك فى نافذتك ذات مساء . لم يكن وجهك المشرق هو الخطر . ولكنى رأيت انعكاس اللهب على الحاجز أمام الموقد . ورأيت ضوء القمر على المنبه. ورأيت ماس الظلال . فأخذت !

ايزابيل : اخذك الشرك فمن أبقاك ؟

الطائف : صوتك قبل كل شىء احاديث صوتك هذه التى تجعل فى الشفق كل مساء شيئاً تهيم به الظلال يشبه ما يرى الناس ان الطير تحبه من الشمس! وابقانى بنوع خاص هذه الثقة الكريمة التى تمنعك حتى من ان تفكرى فى انى قد خدعتك وأنى حى ، ثم تطاق النار فيهوى الطيف!

طه حسين

انظر مجلة باريس الصادرة فى ١ مارس و١٥ مارس سنة ١٩٣٣

قرأت بعد كتابة هذا الفصل حديثاً للكاتب الفرنسى المعروف فرنسوا برشيه نشرته النوفيل ليترير فى عددها الاخير ، ويسرنى أنى قد اتفقت مع الكاتب الفرنسى فى كثير من الاراء، وان ألفت الذين يقرأون الفرنسية الى هذا الحديث القيم

للشاعر شـــــــلى

صباح العالم

حدثينى أيتها النجمة ذات الأجنحة النورانية !
أيتها الروح التى تسبح فى أفقها الوهاج
فى أى كهوف الليل وأغواره أخفيت كيانك

* * *

وحدثنى أنت أيها القمر .. يا كوكب الليل الأصفر الحزين
أيها الرحالة التائه فى طريق لامعالم فيه ولا هاد
فى أى أعماق الليل أو النهار تلتمس مأواك ؟؟

* * *

وأنت أيتها الريح المتعبة الكليلة
التى تجوب الوجود مولولة كالطريد المنبوذ من العالم
أو مازلت تبحثين عن عشك الشجرى فى عذبات الصفصاف والكافور ؟؟

أغنية

هر طائر حزين جلس يبكى إلفا له قد مات
لقد استوى فى ذروة غصن من أغصان الشتاء
وكانت الريح المقرورة تزحف فوقه
والجدول المتجمد يدب تحته

* * *

لم تكن ثمة ورقة خضراء تخفق فى الغابة العارية الجرداء
ولا زهرة ترف فوق الربوة الشاحبة الكئيبة
وكان الجو صامتاً زامتاً
إلا من أزيز الأرجاء البعيدة

الى القمر

خبرنى أيها القمر عن سر اصفرارك ؟
أمن التعب الذى تلاقيه وأنت تتسلق السماء جاهدا محملقا إلى الأرض بين رفاق من النجوم تفاوتت أعمارها ؟؟
خبرنى لماذا لايبدو عليك تغير ما، كأنك عين حزينة لا تجد فى العالم ما يثير انتباهها ؟ ؟

محمد عبد المعطى الهمشرى

التيفوس

للدكتور احمد زكي

اليوم يوم من الأيام التي طواها القرن الثامن عشر بانطوائه. والبلد لندن حين لم يكن لها هذا الشأن الحاضر ولا لمرافقها الصحية هذا الخطر الكبير، ولا لأهلها هذه الثقافة وهذا اليسر المعروف. والدار دار المحكمة وهي تقع في سرة ذلك البلد العتيق.

ففي ضحوة ذلك اليوم أخذ الناس يتوافدون على تلك الدار زرافات ووحدانا: هذا مجرم فاجر في عينه القسوة وفي مشيته التحدي، يقوده رجال من الشرطة على حذر وريبة. وهذا مجرم منكسر الحال في طرفه الذلة يقوده شرطي، وهؤلاء نفر من ذوي هذا المجرم أو ذاك في أثوابهم تهدل القدم وعليها لون السنين، وفي أحذيتهم خروق السعي المتواصل، وعلى وجوههم شحوب الجوع وهم الرزق وقذارة الفقر، أو صفرة المرض وسحنة الاسراف في فنون الدعارات الرخيصة. وهذا أحد المحلفين جاء يمشي في زهو المسيطر، وخيلاء الحاكم، والى جانبه صاحب له يرفع عقيرته يجادل صاحبه في شأن من شئون القضاء، يريد أن ينبه من حوله من الطغام أنه خبير بالقانون بالرغم من كونه محلف، عالم بسياسة الملك وتقسيط العدالة على الرغم من أنه اختير من صفوف السوقة وغوغاء الرعية. وهذه عربة فخمة برز منها رجل أنيق الملبس ناعم الحال في وجهه حمرة النعمة وفي جلده دهن الموائد، جاء للتفكهة والتسلية لما أعوزه ما يشغل به وقته.

أما في داخل الدار فقد أخذت المقاعد تمتلىء، ثم ما بين المقاعد ثم الزوايا والاركان، وامتلأ ما بين المقاعد والسقف بأنفاس ثقيلة تكاد تسقط، وأبخرة كثيفة ندية تكاد تتقطر، وروائح تألفت من روائح ذات أسباب عدة كلها مما لا يطيب إلا في أنوف الكلاب. ودخل المحلفون فأثاروا اهتمام الجمهور وعلم الناس عندئذ أن القاضي يكاد يدخل القاعة، ولم يلبثوا أن صاح بهم صائح في صوته قوة وإمرة «وقوفا» فوقف الناس ودخل صاحب الجلالة القضائية وعلى رأسه عارية من الشعر بيضاء، كأنما لتطمئن الناس الى عدل القضاء. وجلس الناس وافتتحت المحكمة وجيء بالمذنب بعد المذنب وقام الاتهام فصال وجال وبالغ في وصف الجرم ما شاء له حرصه على المجتمع أن تعبث به يد الفساد، وتذهب بطمأنينته نزعات من الشر خالدة في نفوس البشر. وقام الدفاع فأنكر الجريمة ودفع الحجة بالحجة والغضبة بغضبة أشد منها وتقبضت كفاه، ولما لم يكن من حسن اللياقة دخول الاكف في النقاش انهال على المنضدة بيديه حتى أوجع كفيه، ولكن ذلك كان ثمنا طيبا للأثر الطيب الذي كان لدفاعه عند الجمهور. وجاء دور المحلفين فقالوا كلمتهم. وجاء دور القاضي فنطق بالاحكام. وانقضى اليوم والجمهور بين راض وحانق. ومضى أسبوع فأسبوع فشاع في الناس أن رئيس المحلفين قد مات، فعلم الحانقون انهم كانوا مصيبين في حنقهم وأن الحكم كان خاطئا، وقال الراضون ان هو إلا سهم طائش عارض من سهام عزريل أصاب المرحوم اتفاقا. ومضى أسبوع فشاع في الناس أن اثنين من المحلفين ماتوا، فزاد الحانقون حنقا على الأحكام، وأخذ الراضون يرتابون في صحة الميزان، ولكن الحق وضح واليقين تجلى لما مات القاضي بعد ذلك بأسبوع. وهل مات أحد من الجمهور؟ بالطبع لم يبلغ الناس شيء من ذلك، وما كان من الممكن أن يبلغهم.

وجاءت جلسة قضائية تعقبها جلسة أخرى. فزادت الجنائز وامتلأت المقابر وسر الدفانون. فبان ما لم يكن بائنا من قبل، ذلك أن جمهور النظارة أيضا حصد منه الموت أكبر حصاده، وزالت الرابطة ما بين الاحكام وبين الاموات، وعلم الناس انه وباء من تلك الاوبئة التي يبعثها الله على عباده من حين الى حين لغرض لا يعلمه أحد سواه، وخافوا تلك المحاكم واستشأموا منها وأسموها السوداء Black Assizes.

وفي هذا الشهر الحالي من القرن الحالي في مدينة القاهرة في أشد عيادات العالم المتمدين ازدحاما وقذارة وسوء حال، وقع حادث كالذي حكيناه فأصيب بضعة من أطباء القصر العيني ومساعديهم بنفس ذلك المرض الذي ذكرناه،

ولكن علم الانسانية بأعداء الانسان زاد كثيراً ، وفقهه للأوبئة تقدم تقدما كبيراً ، فما كادت تظهر الأعراض على المنكوبين المذكورين حتى عرف المرض الخبيث وأسرع اليهم بالعلاج، أو بالقدر الذي يستطيعه الانسان من ذلك فى المرحلة الحاضرة من تقدمه فى فهم هذا المرض ، والذى نتمناه ألا تنشر هذه الكلمة حتى يدخل الأطباء المصابون دور النقاهة، والذى نتمناه أن يمن الله بالشفاء على من لم نسمع بهم ممن لاشك قد أصيبوا من المرضى الخارجيين بالقصر العينى ، والذى نتمناه أن يكون من هذا درس نافع للجميع لا للقاهرة فحسب، بل فى الريف كذلك .

أما التيفوس فمرض من أخبث الأمراض، ولا شك أنه قديم ولكن القدماء لم يتبينوه لاشتباه أعراضه بأعراض الحميات عامة، وهو قد يتوطن فى الأقطار فتظهر منه إصابات قليلة، ولكنها ثابتة العدد لاتتغير إلا يسيراً، وقد يمتد فى القطر فينتشر وباؤه فيحرث الناس حرثا، ففى الوافدة التى زارت ارلندا عام ١٨٤٦ حصد التيفوس من عاصمتها وحدها نحواً من ستين الفاً . ويساعد على إحياء التيفوس ونشره ازدحام الناس مع سوء الغذاء والقذارة، لذلك تراه يظهر فى الحروب بين الجيوش، وآخر أمثلة ذلك الوافدة التى زارت بلاد الصرب فى الحرب العظمى، وذلك ان النمسا هاجمت البلاد الصربية لأول مرة فهاجر السكان من غير المحاربين الى الجنوب فى ازدحام وفاقة وعرى وسوء حال، فاستيقظ الوباء النائم وبلغ أشده فى عام ١٩١٥ ، وعندئذ خافت النمسا على جيوشها وكانت تنوى مهاجمة الصرب المرة الثانية فأجلتها ، وقام هذا المرض الوبيل نيابة عنها ففتك بالصرب أشد فتك فمات منهم بسببه فى ستة أشهر مائة وخمسون الف نفس .

والتيفوس تنتقل عدواه بواسطة القمل ، وبالقمل وحده على قدر ما حقق الباحثون. ومن الغريب أن هذه الحقيقة لم تدخل دائرة اليقين إلا فى عام ١٩٠٩ فانهم حقنوا قرداً بمقدار من دم مريض بالتيفوس فانتقلت العدوى الى القرد فربوا عليه قملا ونقلوا هذا القمل الى قردة أخرى فاصابتها العدوى . وهذا يفسر لنا أن التيفوس يحصل إذا اجتمعت الزحمة والفقر وفى الحروب ، ولقد صدق من أسماه « داء القذر » ويفسر لنا سرعة انتشاره من مريض لصحيح ، ومن المريض للطبيب ، ويفسر لنا أنه ينتشر فى البلاد المعتدلة وفى الباردة على الأغلب فى الشتاء أى فى الحين الذى يرغب فيه الناس ولاسيما فقراؤهم عن الاستحمام وفى الحين الذى يزدحمون فيه فى المساكن والقيعان رغبة فى الدفء وهربا من البرد .

أما سبب المرض فغير محقق تماما الى الآن . يظن بعضهم انه فعل جراثيم دقت حتى عجزت عن رؤيتها اكبر المجاهر، وصغرت حتى عجزت مرشحات الجراثيم المعروفة عن حبسها ، ولكن أكثر البحاث اليوم يرون أن هذه الجراثيم على صغرها يمكن ترشيحها ، ودليلهم على ذلك أن دم المريض اذا رشح ثم حقن الراشح منه فى جسم سليم لم تصبه العدوى . وقد حاول كثيرون الحصول على هذه الجراثيم ، ونجح كثيرون فى الحصول على جراثيم ، ولكن جراثيم الباحث لم تطابق فى الصفات جراثيم الباحث الآخر، فدل ذلك على أنها عوارض ، وبعضها لا يعطى المرض فهى ليست جراثيم المرض . ولعل أوثق ما استكشف فى هذا الصدد مما له علاقة بهذا المرض جسيمات صغيرة وجدها الباحث ريكتس Ricketts عام ١٩٠٩ فى دم المرضى ببلاد المكسيك ، وأمن على وجود أشباه لها فون فروفازيك Von.Prouvazeh أثناء بحثه عام ١٩١٠ فى بلاد الصرب، وجدها فى باطن خلايا الدم البيضاء للمرضى ، وسميت هذه الجسيمات باسمى هذين الباحثين اللذين ذهبا ضحية المرض تشريفا لهما وحفظا لذكرهما . ومن بعدهما وجدت هذه الجسيمات فى القناة الهضمية للقمل . والابحاث فى هذا السبيل لاتزال جارية تبعث بأشعة من نور ضئيل فى ظلمات هذه العلة المبيدة.

وأعراض التيفوس تشابه من بعض الوجوه أعراض التيفود لذلك كانا يختلطان على الناس حتى جاء جرهارد Gerhard عام ١٨٣٧ ففرق بينهما . وسمى المرض الثانى بالتيفود ومعناها شبيه التيفوس : والمدة التى تمضى على دخول الميكروب فى الجسم وظهور أعراضه تسمى مدة الحضانة ، وبئست هى من حضانة، تتراوح مابين خمسة أيام الى واحد وعشرين يوما، وتظهر الاعراض على الارجح بغتة وقد تظهر بالتدرج . فترتفع الحرارة ويصحب ارتفاعها قشعريرة يصحبها صداع شديد وقىء ، ويكون الهذيان أول الامر زائطا ، ويظهر فى نحو اليوم الخامس على جلد المريض طفح ، وفى الوجه ثقل وبلاهة . وفى الاسبوع الثانى يصبح الهذيان تمتمة ، وان شاء له الله الشفاء والسلامة نزلت حرارته فى نحو اليوم الرابع عشر فجأة وصحبها عرق غزير.

ولا سبيل لاتقاء التيفوس إلا بتطهير السكان من القمل ، والقمل من الحشرات التى يمكن استئصالها ولو أن كثيراً من المصريين فى الاحياء الفقيرة وبؤساء الريف يظنون ان القمل كالبق لاسبيل لاستئصاله، وربما أتينا فى كلمة أخرى على طرق ذلك.

الفضاء وقياسه

وتطور رأى العلماء فيه

عرف من زمن بعيد أن طول الشيء الواحد يتغير قليلا بتغير وضعه بالنسبة لاتجاه سير الارض فمثلا اذا أخذت قصبة ووضعتها فى اتجاه سير الارض حول الشمس كان لها طول معين، فاذا أدرتها بحيث تصبح عمودية على اتجاه سير الارض وجدتها أطول قليلا مما كانت عليه فى الوضع الاول. هذا يتعارض طبعا مع الاعتقاد السائد بأن طول الشيء ثابت لا يمكن أن يتغير لمجرد تغير وضعه. والواقع أن هذا التغير ضئيل جداً لا يظهر إلا فى الحسابات الدقيقة وهو أضأل من أن يؤثر أى تأثير محسوس فى تجاربنا العادية

ولم يخطر بالبال أن هذا التغير الضئيل ستنبنى عليه نتائج غاية فى الخطورة الى أن تطور العلم وعرف سبب هذا التغير. وهاك بيان السبب:

من الثابت الآن أن كل جسم مادى يتألف من دقائق متناهية فى الصغر تسمى كهارب بعضها متحمل بشحنة كهربائية موجبة، ويسمى بروتون وبعضها شحنته سالبة، ويسمى الكترون. فالقلم الذى بيدى هو مجموعة هائلة من تلك الدقائق الصغيرة المكهربة وكذلك كل جسم آخر.

ومن الثابت أيضاً أن أى جسم مشحون بشحنة كهربائية إذا تحرك بسرعة فانه يصبح مغناطيسياً له خواص الجذب. وعلى ذلك اذا تحرك أى جسم مادى بسرعة كبيرة فان كل دقيقة من دقائقه المكهربة يصبح مغناطيسياً، فينشأ بينها تجاذب ينتج عنه انكماش فى ذلك الجسم. وقد حسب العلماء مقدار هذا الانكماش بناء على القوى المغناطيسية الناشئة فوجدوه مساويا تماما لما يحدث فعلا للاجسام بحركتها مع الأرض.

وعلى ذلك صار من الثابت أن الجسم المتحرك ينكمش قليلا ولهذا الانكماش علاقة بمقدار سرعة الجسم، فكلما زادت السرعة زاد الانكماش وهكذا

ولكننا نعلم أن فى الكون كواكب مثل كواكب السدم اللولبية تتحرك بسرعة هائلة بحيث يصبح لسرعتها تأثير محسوس فى حجوم الاجسام التى عليها. ومنها ما تبلغ سرعته حداً ينتج عنه حتما انكماش كل جسم عليها الى نصف الحجم الذى يكون عليه لو كان عندنا هنا على الكرة الارضية. بمعنى أن الحجر هنا الذى يكون حجمه متراً مكعباً لو انتقل الى هناك ووضع على ذلك الكوكب وأصبح متحركا معه لصار حجمه نصف متر مكعب فقط.

فاذا فرض مثلا أن فى تلك السدم كوكباً مثل الارض تماما وعليه أشخاص مثلنا وحياة كحياتنا بالضبط لكان حجم الرجل هناك نصف حجم الواحد منا وكل شيء هناك ينقص حجمه بنفس النسبة.

ولكن ثمة سؤال غاية فى الدقة والصعوبة وهو «اينا يا ترى الذى يتحرك بتلك السرعة الهائلة. نحن أم تلك السدم؟» ان كل الذى نعرفه هو أن تلك السدم تبتعد عنا بسرعة كذا ميلا فى الثانية، ولكننا لا نعرف أينا المتحرك وأينا الثابت. من السهل على سطح الارض أن يقول الرجل هذا الشيء متحرك وهذا ثابت لأنه يقارنهما بسطح الأرض، فراكب القطار يخيل اليه أن عمود التلغراف هو الذى يجرى الى الوراء ويخيل اليه أنه هو جالس لا يتحرك ولكنه يعرف أن الحقيقة عكس ذلك، اذ ينسب حركة الأجسام الى شيء ثابت وهو سطح الأرض. أما الحركة فى الفضاء فليس لها ضابط تنسب اليه، اللهم إلا اذا اعتبرنا مجموعتنا الشمسية ثابتة وكل ما عداها متحركا، واعتبرنا أنفسنا مركز الوجود، وهذا غرور نربأ بأنفسنا عنه لعلمنا بأن شمسنا ما هى إلا واحدة بين ملايين الملايين من أمثالها، وان من الشموس ما هو أعظم منها بآلاف المرات.

لا يحق لنا اذن أن نعتبر أنفسنا ثابتين وان تلك السدم تطير مبتعدة عنا، لأن لتلك نفس الحق فى أن تعتبر نفسها ثابتة واننا نحن الذين نطير مبتعدين عنها. وعلى ذلك فالحجر الذى نقيسه على سطح الارض فنجده متراً مكعباً والذى قلنا عنه واثقين انه اذا انتقل الى تلك السدم صار حجمه نصف متر فقط لا يحدث له شيء من هذا الا فى زعمنا وعلى اعتبار أننا ثابتون، أما فى عرف من يكونون عائشين على تلك السدم فالأمر بالعكس، وفى زعمهم أن هذا الحجر اذا قيس على أرضنا فحجمه نصف متر فقط واذا انتقل عندهم فحجمه متر كامل

اذن فحجم الشيء ليس بالقدر الثابت، بل يختلف باختلاف الشخص المشاهد له، والجزء الواحد من الفضاء يختلف مقداره باختلاف الموضع الذى يشاهد منه، فلا معنى اذن لعبارة «متر مكعب من الفضاء» ويجب أن نحدد هذا المتر بأن نقول «بالنسبة لرجل يعيش على كوكب كذا»

عبد المغنى على حسين

مدرس بمدرسة المنصورة الثانوية

القصص

في الأدب الايطالي الحديث

الرواية في پونتاسياف !

للكاتب الايطالي لوسيو دامبرا

— ١ —

في ذلك المساء بعد تناول الطعام ، كانوا يتحدثون في شرفة (الفيللا) عن الشهرة. وكان رئيس الأركستر «فينيزياني» يلقي بسمعه الى الحديث ، وعلى ثغره ابتسامة جائرة ، يتراءى فيها التهكم واضحاً جلياً ، وبعد صمت عميق ، قال :

— الشهرة ؟ ... أوه ! . اسمعوا إذن هذه القصة . ليس بينكم من لا يعرف «سيريني» الشاب ، المؤلف المسرحي الشهير. وقد أذكر اني سافرت معه من روما الى فلورنسا بالقطار ، فأيقظنا عند الفجر ، صوت عامل يصيح : «پونتاسياف ! پونتاسياف ناحية كسائر النواحي ، بل هي محطة عادية ، تبعد عن فلورنسا بضعة كيلو مترات ، وليس فيها ما يستوقف المسافرين أو يلفت أنظارهم ، ولكن الأدباء ياسادة ليسوا كغيرهم من المسافرين

— صرخ « سيريني » پونتاسياف ! — ياله من اسم جميل !!!... انه لفي منتهى الرقة والعذوبة والطرافة !!! انه ليبدو لي رائعاً كل الروعة !!!

ولقد شعرت عند سماعه الشعور الذي أحسه ، لو حدثوني عن حديقة «بوبولي» أو جسر «كرايا» !!

ووراء « پونتاسياف » هذه ، لست ألمس مدينة فلورنسا بل فيورانزا التاريخية ، التي أتخيلها بتلك الحديقة «الميديسية» (١) وقد زخرت بنساء النهضة الفاتنات . وأ كاد أسمع في أعماق نفسي تلك الانغام الشجية التي تعرف بها قصائد « پوليثيان» (٢) الرائقة . « پونتاسياف » !! أشاعر أنت بالجمال السحري ؟ الذي يغمر هذا الاسم ؟ سأؤمها ، سأؤمها ، لاني أحبها كما يجب أن تحب ، دون أن أعلم لماذا . ! !

والمصادفات التي تخدم صرعى الغرام ، أبت إلا أن تحقق امنية عاشق « پونتاسياف» فلم تمض اسابيع ، حتى اضطرته الي الوقوف في ساحتها الكبرى — الوحيدة — اثناء سفره بالسيارة من فينيسيا الى روما ، لان البنزين ، كان قد نفد حتى آخر قطرة

ذهب السائق يبحث عن قليل من هذا السائل الثمين ، وأخذ «سيريني» يطوف هذه القرية ، فأتم طوافها في وقت قصير.

وفي الواقع — وهذا مايدلنا دلالة واضحة على أن احلامنا بعيدة كل البعد عن الحقيقة ! — لم تقع أبصار « سيريني » على مايذكره بحديقة « ميدسيس » أو شعر « پوليثيان » !

وداعاً أيها الحلم المعسول ! حلم « ميدسيس » وقد زخرت بحسان النهضة الفاتنات ! ... ليس في « پونتاسياف » كلها أثر للخضرة بله المروج

وداعاً أيتها الاصداء الشجية ، التي تردد أنغام قصائد « پوليثيان» الرائعة ، ليس في «پونتاسياف» الغارقة في قيلولتها الصيفية: غير نغمة واحدة : بكاء طفل ، متواصل ، ملح ، مزعج يبعث على السأم والضجر ، تنفجر قنابله من حانوت صغير في مؤخر قهوة القرية الحقيرة

وهذه القهوة ، دخلها « سيريني » ، ليدخن بضع لفائف ، ويكتب عدداً من البطاقات البريدية الى أصدقائه ، فلما أتم ذلك كان ، الملل قد استبد به ، واستولى ولم يرقه قط أن يبصر السائق ، يعود في هذه اللحظة ويداه فارغتان . ان العثور على لتر من اكسير الحياة لأسهل بكثير من إيجاد قطرة بنزين في هذه القرية المتواضعة ...! والحاجة كالقانون ، تملي اراداتها إملاء وتفرض مشيئتها فرضا لابد من إيجاد قليل من البنزين ، مهما كلف الامر ، فليعد السائق ، وليبحث عن هذا السائل الثمين

---

(١) ميدسيس أروع حدائق روما وأشهرها (المعرب)

(٢) شاعر ايطالي مشهور بدقة تصويره ورقة شعره (المعرب)

يضجر « سيريني! » فيترك سيارته تنعم في ظل بيت صغير، هو أجمل البيوت، ويخرج الى الساحة الكبرى حيث الشمس تذهب كل مافيها، تلهبه، ويعود بعد قليل الى سيارته ففيها على الأقل يستطيع أن يأخذ نصيبه من الراحة، فليتمدد فيها، وليرغم نفسه على أن ترضى بما لا تريد، وليتغن بقطعة شعرية للشاعر « بوليثيان » وليهدىء من حركاته لعل الرقاد يلبي نداءه.

وانه لكذلك، واذا مصراع نافذة فوق رأسه يفتح، وتطل عليه مخلوقة فاتنة .... تقابلت نظراتهما، فاحدثت في كل منهما ماتحدثه عادة، نظرات الرجل في المرأة والمرأة في الرجل. واخذت العيون تبحث عن العيون من طرف خفي حتى اذا تقابلت ازورت، واذا ازورت تقابلت، ... وهكذا تم التعارف بينهما ولم يشاهد أحدهما الآخر قبل هذه الساعة.

وتخاطبت الابصار بلغة سحرية، دون أن تتظاهر بانها تتخاطب، وتفاهمت، دون أن تتظاهر بانها تتفاهم. واليكم ماقالته عيون المرأة للشاعر:

— « أنت لطيف جداً ياسيدي! أنت شاب أنيق جذاب من طبقة يندر أن ترى في ساحة « بونتاسياف » الكبرى.... وبعد دقائق معدودات. ياسيدي الفتان. سيوافيك الشخص الذي تنتظره ولعله امرأة، بل من المؤكد انه امرأة جميلة ترافقك في السفر. أو تفر معك!

وإذ ذاك. يزأر محرك السيارة. وهناك. حيث يلتوي الطريق ستختفي الى الابد. أيها الحلم الجميل! ستختفي وانت من تلك الطبقة التي لاتتسنى لنا مشاهدتها اكثر من دقائق قليلة. خلال شقائنا الدائم ونحن بنات الريف التعسات! اللواتي قضي عليهن أن يخلقن في الريف، وان يتزوجن في الريف، وأن يقضين الحياة في الريف خاضعات « لامانة » يرتضينها على غير ارادة منهن...

أيها الشاب الجذاب، الذي سيختفي بعد بضع دقائق! إنه ليلذ لي كثيراً، من هذه النافذة أن تصل بك! والاتصال بك خطيئة النساء اللواتي على شاكلتي .... !!!

وقد انبرت لحاظ الشاعر تجيبها:

— « أنت جميلة أيتها المجهولة الفاتنة! أنت جميلة بعينيك البراقتين، وشعرك المسدول! أنت جميلة بهذه الجدائل المجعدة على الطريقة القديمة، وهذا الثوب الأسود الذي ترتدينه أملس مصقول الى درجة تسمح برؤية النقط البارزة في جسمك البض

وهذه الدانتلا التي تماشي هذا الصقل وتحده، في غاية الأناقة والظرف!

وهنا، في هذه النافذة التي تخفي من جسمك الغض ما تخفي، وتظهر ما تظهر، تتراءين في وسط الهالة المظلمة التي تكتنفك، في جمال تمثال، من تماثيل ١٨٥٩، كأنك الهة من الهة العصور القديمة، بهذه الزينة التي لا يعرفها عصرنا، عصر الفساتين القصيرة، وعصر الفوكس — تروت!

لقد أضاع عصرنا ذلك الجمال البالغ !!!

وكم تروقين لي، أنا الشاعر المفتون، أيتها السيدة الحسناء!

إنك لتملكين ماتجملين به « بونا سياف » أكثر من كل ما صورته لي مخيلتي !!

وان لك وأنت تتظاهرين بعدم النظر الي، بينا أنت لاتنظرين الا الي، ان لك وأنت تتصنعين التحديق في الأفق البعيد، بينا أفقك الواسع ينحصر في المساحة الصغيرة التي تشغلها سيارتي، ان لك ابتسامة حزينة تفتر عنها شفتاك الرقيقتان اللتان لم تشعرا بلذعة القبل الملتهبة ولم تتمتما بالجمل المغرية!

أيتها الريفية الحزينة، التي زوجت منذ عشرة أعوام، بمن لا تريد: بشيخ البلد! بالطبيب! بكاتب العدل! — أيتها المرأة الشقية التي ترتضى أن تقضى في هذا المنزل قبل أن تعرف الحياة، والتي ترتضى أن تخنق في مهدها الاحلام المعسولة التي يسرح في عوالمها قلبها الخفاق، وتحلق في اجوائها مخيلتها الوثابة، بعد أن رضعت الخيال من القصص والروايات.

أيتها الريفية الحزينة، التي تستطيع أن تجد الحب في جميع الكتب،، ولا تتصور انها تستطيع أن تجده في غير المدن!

أيتها الريفية الحزينة التي تتحسر على ألا تفهم من الحياة غير واجبات الزوجية، وعواطف الامومة، والتي تتحدد آمالها كل يوم، وفي مثل هذه الساعة. عند غروب الشمس!

أيتها الريفية الحزينة التي تبحث من فتحة هذه النافذة عن قليل من الهواء، وقليل من الفضاء، وعن قطعة من السماء، تبصر فيها النجم يشعل زهرته المتلألئة!

أى مدام «بوفارى»(١) أى حرقة تعتلج فى صدرك عند ما تدركين ان الاسفار الجميلة التى تحلمين بها، لن تتحقق منها غير هذه الوقفة الكئيبة التى تقفينها كل يوم، عند هذه النافذة!

أى مدام (بوفارى) «بونتاسياف»! ما أروع حب الاستطلاع الذى تنم عنه عيناك! عيناك اللتان تنظران إلى، دون أن تتظاهرا بالنظر إلى! عيناك اللتان تتكلفان البحث فى البعد عما لا أدرى وهما لا تبحثان فى الحقيقة إلا عنى، أنا الجالس فى هذه السيارة التى جاءت من حيث لا تدرين، والتى تتأهب لان تذهب الى حيث لاتدرين!

آه! لو كان يستطيع رجل مثلى أن يقف هنا، أو لو كنت تستطيعين أن تنزلى اليه وتركبى الى جانبه فى هذه السيارة. وأن تختفى معه هنالك حيث يلوى الطريق عند تلك النقطة التى تمثل حد العالم الذى أذن لك أن تعرفيه حتى اليوم!

آه لو كنت تستطيعين أن تذهبى معه. وألا تعودى بعد اليوم ...!

— ٢ —

هكذا تناجت منهما العيون، وقد طالت بينهما المناجاة لان البنزين كان مايبرح صعباً إيجاده، حتى فى ضواحى «بونتاسياف»، وسيرينى الذى بلغ من الشهرة حداً قصياً، واعتاد أن يعرفه الناس فى كل مكان، طفق يحدث نفسه يقول: «لاشك أنها عرفتنى، لأن رسمى كثيراً ماينشر فى الصحف والمجلات، وهذه نظراتها التى لاترفعها عنى تدل بوضوح على انها تعرف من أنا!.. وهى مهما كانت «بوفارية» لا يمكن أن تنظر بهذا الشكل الى رجل عادى، يمر فى طريقه بنافذتها!

ولا بد أن تكون قرأت لى، وقرأت لى كثيراً، لان ساعات الفراغ فى الريف أطول منها فى المدن، وإذن فللنساء وقت كاف فوق الكفاية، لأن يلتهمن الكتب مكاتب، مكاتب!!

وما دامت فلورانسا على قيد خطوتين من «بونتاسياف» فما لاريب فيه أنها ذهبت الى مسارح التمثيل، وأبصرت بعض رواياتى تمثل فيها، وربما رأتنى عند مايستدعينى المتفرجون الى المسرح لأحييه ويحييني، بين عاصفة من التصفيق والهتاف!»

وفى هذه اللحظة، ظهرت فى النافذة امرأة مسنة، أحاطت بوجهها هالة من الشعر الابيض. فنظر اليها «مارك سيرينى» واستأنف حديثه مع نفسه:

«من المؤكد ان هذه المرأة أمها فهى تشبهها كل الشبه، وهذه ابنتها تسر فى أذنها شيئاً، وإنى واثق أنها تقول لها: «أترين هذا الرجل؟ هو (مارك سيرينى) الكاتب المسرحى الشهير!! .. أجل، لاشك انها قالت لها ذلك، أو شيئاً يماثله، لان الأم أيضاً أخذت تنظر إلى ولا ترفع بصرها عنى!!

أنظرا إلى!.. أنظرا إلى!.. أيتها السيدتان العزيزتان ترى هل أروق فى أنظاركما؟

أنظرا إلى ولا تغضا الطرف عنى حياء (وخجلا) فقد فرض على أصحاب الشهرة أن يمتع الناس نظارهم بهم!!»

اختفت الأم، ولكنها لم تلبث أن عادت، وفى يدها مجلة عرف من جلدها الازرق انها مجلة «الاليستراسيون» وفتحت الأم المجلة على حافة النافذة، وأشارت بيدها الى صفحة فيها، تلفت أنظار ابنتها اليها، ثم عادت الى التحديق فى الشاعر: «لا شك انهما تقابلان بين رسمى المنشور فى المجلة وبين وجهى... أجل أيتها السيدتان أنا هو «مارك سيرينى» لحماً ودماً.. أنا هو «مارك سيرينى» الذى لم يك ليخطر له أن من الممكن أن تضطره المصادفات للوقوف فى «بونتا سياف»... أنا هو «مارك سيرينى الذى سيرحل بعد قليل، ولكن بعد أن يكون قد ترك قلبه فى هذه النافذة، لأنه شاعر، والشاعر مجنون، وهو هو هذا الجنون الذى أطبق عليه، وجعله مفتونا بك أيتها المجهولة المغرية، الى حد الوله!!»

وله؟ ... وأكثر من ذلك أيضاً!

هكذا فى طرفة عين؟.. هكذا فى طرفة عين!

ولقد استحال عدم اصطباره الى شيء آخر، حتى انه لم يستطع أن يخفى استياءه، عندما أبصر السائق يعود بعد أفول الشمس، وفى يده وعاء فيه قليل من البنزين، حصل عليه باعجوبة من سائق، استوقفه على قارعة الطريق

وأخذ «سيرينى» يحدث نفسه: «لماذا وجدت البنزين أيها الأبله!. ألم تحدثك نفسك أن سيدك أمسى لا يرغب فى الابتعاد عن هذا المكان؟ وانه هنا وتحت هذه النافذة يمتع نفسه بالنظر الى عيون حسناء مغرية؟

لقد كان خيراً له أن تعود فارغ اليدين مادام قلبه قد امتلأ!!»

ولكن السائق الذى لم يك نبياً ولا يمت الى نبى بصلة النبوة ولا صاحب كرامة تسمح له أن يشعر من مسافة ثلاثة كيلو مترات أن سيده صار فجأة لا يرغب فى البنزين لم يفهم التأنيب الخفى الذى يسدده اليه سيده لانه بذل كثر مما فى

(١) بطلة قصة وضعها باسمها الكاتب الفرنسى الشهير (غوستاف فلوبير) يظهرنا فيها على أثر الشهوة التناسلية فى حياة المرأة الملوك

وسعه حتى حصل على الوسيلة التى ستمكنه أن يرقد براحة وهدوء فى سريره الوثير بروما !

علام هذا الصمت ... ؟ ما باله لا يتكلم والشمس توارت، والليل جن ؟

أشعل الضوء فى غرفة المجهولة الحسناء ، فلم يعد فى الامكان تمييز وجهها الجذاب وعينيها الدعجاوين وغدا شبحها يتراءى أغبر قاتما وهذا الشبح لم يك أقل جمالا من وجهها وعينيها فهذا رأسها قد اتكأ على ساعديها بهيئة جميلة

تهيأ كل شيء وأشعلت الفنارات ! ... فوا أسفاه على الزمن الماضى زمن الفنارات التى تضاء بالاسبتيلين ! ذلك الزمن الذى كان يضيع الانسان فيه وقتاً طويلا ليجد مايلزمه من ماء وكاربير! فلا يحصل على ما يريد إلا بعد الغضب والصخب..

ولكن المرء اذا كان عاشقاً ولاسيما اذا كان يرغب عن السفر فان الفنارات القديمة تستطيع أن تؤدى له خدمات عظيمة

وداعا أيها الحلم المعسول !

أخذت السيارة تجأر وأخذت تعدو وأخذت تبتعد وما زالت تجأر وتعدو وتبتعد حتى اختفت عند النقطة التى يلتوى فيها الطريق

ترى هل يعود الى (بونتاسياف) ؟

فابتسم (سيرينى) ... لن يعدم سبباً للعودة . . .

— ٣ —

لم يعد فى الحال . ولكنه عاد !!!

كان للشاعر فى أحد أدراج مكتبه بروما . رواية لم يتم منها إلا بضعة مشاهد . وهو مؤلف نشيط خصب الانتاج سريع العمل. الى حد يفوق التصور ولاشك ان هذه الصفات تبلغ حدها الأسمى اذا كان الحب يلهب منه الدماء ويسعر فى قلبه الضرام ...

وكان اذا أخذوا عليه حبه ، لايتردد فى الاجابة : « يخفف المغرمون عن أنفسهم بالتنهد ، أما أنا فبالكتابة !.. احصوا احصوا رواياتى تجدوا كل رواية بامرأة ... »

ولما لم يكن للرواية الاخيرة امرأة . فان تقدمها كان بطيئا جداً .. أما الآن وقد غدا وجه تلك الريفية الحسناء لايفارق مخيلته . فان الشاعر اكتشف الينبوع الذى يستمد منه وحيه والهامه ، وفى وقت أقل من القليل ، أتم الرواية ، ونقلها وقرأها لأصدقائه المخلصين ، وراحت الصحف ، تعلن عنها وبحروف بارزة ، انها اعظم حادث مسرحى ، لذلك الموسم .

وما كاد يذاع هذا النبأ الخطير ، حتى هرع الى « سيرينى» عدد كبير من رؤساء فرق التمثيل ، وعرضوا عليه مسارح روما، وميلانو وتوران ونابل لتقوم أشهر الفرق بتمثيلها للمرة الاولى. وكان بين المتسابقين ممثل فرنسى شهير ، حاول أن يحتكر تمثيل هذه الرواية الرائعة لفرقته ، ولم يطلب لذلك أكثر من المدة التى تكفى للترجمة ، وقد بذل جهوداً عظيمة لينيل باريس شرف تمثيلها لأول مرة ، ولكنه لم يفلح .

وتقدم رؤساء آخرون يعرضون مسارح برلين وفيناولندن لأن « سيرينى » كانت له شهرة اوربية لاتقف عند حد ، وقد سرت عدوى هذه الحميا الى إحدى صاحبات العروش، فأسرعت الى عرض مسرح البلاط الملكى !

أما الشاعر فقد كان يلازم الصمت ، ولا يجيب بحرف ، وكل مافعله أنه أوعز الى سكرتيره الخاص بتسجيل أسماء المدن التى تعرض عليه . وتجمع عليه أصدقاؤه وألحفوا عليه فى السؤال :

— أى المدن اخترت ؟ . .روما ؟ ميلانو ؟ فلورانسا ؟ توران ؟ نابلى؟

كان « سيرينى » لاينبس ببنت شفة ، وإنما كان يجيبهم بهزة رأس تدل على النفى كل الدلالة !

— اذن . هل اخترت مدينة أجنبية ؟ پاريس ؟ . برلين؟ فينا ؟ . لندن .

ولكن الشاعر لبث صامتا ، رأسه وحده كان يتكلم !

— فانفجر أحد أصدقائه وقال : إذن .. إذن أين ؟ ؟

— هل اخترت مسرح « الماريونيت » ؟ . . مسرح « الفينيول » ؟

أخذ « سيرينى » يبتسم بوداعة وسكينة..وأخيراً أجاب :

— ستمثل روايتى؟ لأول مرة فى« پونتاسياف » !!

فى « پونتاسياف »؟؟ ؟

دهش الجميع ، وطفقوا يحتجون فى غير هدوء ولا سكون، أما « سيرينى » فانه لبث يبتسم لابتسامته الغامضة ويعيد فى غير ملل :

— قلت لكم فى « پونتاسياف » !!! ... كفى !!!

ولم يستطع أحد بعد ذلك أن يستدرجه الى قول جملة غير

هذا ، فتسارع اصحاب المسارح ورؤساء الفرق والممثلون وسفراء الملكات الى داره ليروا : أمازح هو أم جاد ؟ أم اعتراه جنون مزاح ؟... كلا ! . . ان « يريني » وهو جالس الى منضدته يعيد بدون ملل : « ستمثل روايتي لاول مرة في « بونتاسياف » !

وقد زاد على ماتقدم : « هاهي مستريحة في هذا الدرج ، على غاية ماتروم من الصحة ، ولم يصف لها أي طبيب تبديل الهراء اللهم إلا اذا كان هواء « بونتاسياف »

فأخذ بعضهم ينظر في وجوه بعض والدهشة ترفع من عيونهم الحواجب ، وتقطب الجبهات ، وشرعوا يتساءلون عن سبب هذا العناد ، فاختلفت آراؤهم وتضاربت ، ولكن أحداً منهم لم يستطع إدراك الحقيقة

وقد أسرع رؤساء شركات التمثيل بالرجوع الى القطار لانه لم يك بينهم من يفكر في « بونتاسياف » عادوا مخفقين وأكثرهم كان قد تعاقد سلفا على تمثيلها في أشهر المدن . وأكبر العواصم !

ولكن تمثيل رواية جديدة ، للمؤلف المسرحي الشهير « مارك سيريني » عملية رابحة ، تدر الذهب الكثير فهل يتركها الجميع ؟ كلا لقد قبل احدهم — وكان أمريكياً — أن يمثلها لاول مرة في « بونتاسياف » لانه بحساب أمريكي ، رأى ان هذه "عملية ستدر عليه أرباحا أمريكية أيضاً .. وهكذا تعاقد مع المؤلف ووقع الاتفاق ، ولما كانت شركات التمثيل المنظمة لا تستطيع أن تذهب بممثليها الى « بونتاسياف » حيث لا عمل لهم ، فقد وعد أن يهيء في ثمانية أيام ، فرقة خاصة لتقوم بتمثيلها ثلاث ليال متواليات... وبعد ستة شهور يمنح امتياز الرواية للفرق العادية . لتمثلها في كبريات المدن وأمهات العواصم

لهابقية — حلب ايزاك شموش

الكتب

آراء بعض المستشرقين

فى الشاهنامه

الشاهنامه هى الملحمة الفارسية التى نظمها الفردوسى فى تاريخ ملوك الفرس من بداية تاريخهم الى عهد بنى ساسان زمن الفتح الاسلامى ، فبلغت ٦٠ ألف بيت نقلها الى العربية نثراً الفتح بن على البندارى من أدباء القرن السابع الهجرى وظلت هذه الترجمة سراً فى ضمير الزمان حتى كشفها صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام فقارنها بالأصل الفارسى وأكمل ترجمتها فى مواضع، ثم صححها وعلق عليها وقدم لها مقدمة جامعة فى مائة صفحة من القطع الكبير فدل بذلك على سعة اطلاع وفضيلة صبر لايؤتاها إلا القليلون من أبطال العلم و[illegible] المعرفة وإليك نبذاً مما أرسله اليه المستشرقون تقديراً لجهده وتنويهاً بفضله.

وقال الاستاذ نيكلسون أستاذ الادب الفارسى بجامعة كمبردج ماترجمته :

« أهنئكم على الطريقة الجديرة بالاعجاب التى أخرجتم بها هذا الكتاب الكبير الذى لابد له من بحث طويل وجهد كبير . وإذا اعتبرنا ضخامة الكتاب تبين الجهد الخارق للعادة الذى بذلتموه لاخراجه فى هذا الزمن القصير »

وقال الاستاذ جيب أستاذ الادب العربى بجامعة لندن مايأتى بنصه العربى :

« هذا وقد اغتنمت أول فرصة لأتصفح هذا الكتاب الضخم وأستفيد بجهوداتكم العظيمة فى نشره والتعليق على متنه ولا بد من الاعتراف بتعجبى من اتساع هذا العمل الذى قد تكفلتم به وباتمامه وباعجابى بحسن نجاحكم فى ذلك ولاسيما بالمدخل الممتع الذى قدمتموه لمتنه » .

وقال الدكتور ريتر وكيل جمعية العلوم الالمانية باستانبول مايأتى بنصه العربى :

« وقد وصل خطابكم فى الشاهنامه فانه لايفارقنى من أسابيع. وهو والله كتاب تعجبت منه وأعجبت به . انتقدته فوجدته ذهباً إبريزاً . وأنا والله شديد فى الانتقاد.

قد أخذت من طريقة العلم الأوروباوى صحيحها واجتنبت سقيمها وصرت لنا أخاً فى العلم بل أستاذاً فيه . ولو ذكرت فضائل كتابك بالتفصيل لصار هذا المكتوب كتاباً آخر طويلا . ومما سرنى خاصة معالجتكم المسائل المتعلقة بتحقيق المتن والحكم فى الاصول المختلفة ، والتفريق بين أنواع التعاليق . فان ذلك شىء يهمله كثير من المستشرقين . ثم البحث فى مسألة التراجم القديمة للخداينامه وغير ذلك مما يدل على دقة نظركم والاعتناء فى البحث وترك ادعاء شىء بدون دليل واضح وبرهان مقنع ثم طريقتكم فى توضيح الكتاب بعضه ببعض ، والاعتناء بذكر الكتب المقتبس منها ، وترتيب الفهارس المفيدة . كل ذلك مما يسر عين الناظر فى كتابكم.

جولة فى ربوع أفريقا

رد على مقال

أشكر للأخ الفاضل الدكتور محمد عوض حسن تقديره وجميل عطفه وتشجيعه وآسف جد الأسف لأنى لم أوفق الكتابة جولتى بحيث تصادف هوى فى نفسه فهو — كما خيل إلى — كان يريدها قصة تنقل عن يومياتى دون أن تغفل حتى أجور السفر وأماكن المبيت ومواقيت الارتحال والاقامة فى كل بلد حللته وما الى ذلك من التفاصيل التى لا شأن لها فى نظرى ولو فعلت ذلك لأخرجت دليلا هو الى كتب السياحة — أمثال بدكر — أقرب ولأغفلت غرضاً أنا شديد التمسك به فى جولاتى كلها ، وهو أن أثير الناحية العلمية والجغرافية كلما أتاحت لى مناسبات الرحلة ذلك .

ويأخذ الاستاذ على أنى تكلمت عن أماكن لم أطرقها وقصصت عن شعوب لم ألقها وضرب لنا مثلا ، بلاد الكنغو وروديسيا وشعوب الشلوك . وأنا لم أكتب عن تلك البلاد إلا

بمناسبة ماشاهدته من غلاتها التى كانت توسق فى ميناء بيرا البرتغالية طيلة اقامتى بها وهى المنفذ الرئيسى لمنتجات بلاد رودسيا والكنغو . أما عن شعوب الشلوك فانى لاقيتهم مراراً وحققت بعض ماأعلمه من سيرتهم وبخاصة فى الملاكال من أعالى النيل الابيض .

ويرى الاستاذ ان بعض النقص الذى نسبه الى الكتاب راجع الى اغفالى كتابة مذكرات يومية . مع أن هذا ماأفعله دائما ولم أتهاون فيه ليلة واحدة فى جميع جولاتى الافريقية والاسيوية والأوربية غير أنى لاأنشر من تلك المشاهدات إلا ماأراه ضروريا وما تسمح به ظروف النشر . ولو أراد الدكتور بصفة خاصة أن يطلع على يومياتي لوجدها طوع أمره

أما عن الهفوات التى أشار الاستاذ اليها فها أنا أبين ما عن لى فيها :

يقول الدكتور ان كلمة شيبا الانجليزية هي سبأ العربية . وأظن ان هذا عين ماقلته فذكرت كلمة (شيبا) بين قوسين بعد ذكر كلمة سبأ العربية

وهو ينبهنى الى ان نهر النيل (لم يصبح أعظم أنهار الدنيا وهناك ماهو أطول منه وأوفر ماء) وأنا لم أتعرض لطول النهر ومائه . ولا أزال على رأيى فى ان النيل أعظم انهار الدنيا على الاقل من وجهة نظرى كمصرى وحق لنا جميعا تمجيده والاشادة بذكره وعظمته . ومتى كانت عظمة الانهار ياصديقى مقصورة على أطوالها ومقادير مائها ؟

ويقول الاستاذ ان غابات اثورى فى غرب جبال رونزورى فلا أستطيع أن أراها من فورت پورتل وأنا لم أقل فى كتابى انى رأيتها . هذا فضلا عن ان أهل البلاد كانوا يشيرون اليها من فورت پورتال، وهم يطلقون عليها هذا الاسم على رغم ماأعلمه أنا وأنت من أن أكثفها حقا ماكان على الجانب الغربى .

كذلك لم أقل قط ياسيدى الدكتور بأن للغوريلا ذنبا وذلك أمر يعرفه حتى صغار الطلبة — ولكنى ذكرتها فى مقام التشبيه اذ قلت ان الواحد من الزنوج يبدو كأنه الغوريلا أو القرد الكبير . فالذؤابة التى تتدلى من اعجاز القوم تشبه ذنب القرد ومظهرهم العام يحكى الغوريلا

أما قطن الجزيرة فغلة شتوية وقد كنت هناك فى أواخر سبتمبر ولم يكن القوم قد بدأوا زراعته بعد . وهو يجنى فى أوائل الربيع كما قلت غير ان تحديد الشهور بالضبط أمر غير ميسور ، فنحن هنا فى مصر مثلا لاتبدأ زراعة القطن فى شهر واحد فى كل البلاد ولا فى كل السنين فقد يتراوح البدء بين شهر وشهرين .

وقبل أن أختتم كلمتى أكرر للاخ الفاضل عظيم شكرى وكبير اجلالى واحترامى

محمد ثابت

حول قصة مصرية

قرأت فى العدد السابع من مجلة الرسالة الغراء قصة مصرية بعنوان (حكمت المحكمة) لكاتبها (السيد أبو النجا)

وهذه القصة مصرية حقا لانها تصف ناحية من الحياة الاجتماعية المصرية فى الريف. ولكنها من الوجهة الفنية قد شابها عيب جوهرى أفقدها روعتها واضعف عنصر الحياة فيها . فالقصة كما كتبها صاحبها لم تخرج عن أنها قشور للقصة الحقيقية التى كان يجب أن تظهر على سواها وتكشف عن العوامل التى أدت الى هذه المأساة

أما خطة القصة الحقيقية التى كان يجب ان تكون فتتلخص فى مايأتى :—

١ — كيف اتصل ابراهيم افندى بابنة الاعرابى؟

٢ — كيف كانت العلاقة بينهما؟

٣ — كيف ظهرت هذه العلاقة وعرفها والد الفتاة

هذه هى العناصر التى كان يجب أن تظهر فى القصة . ومع شيء من التحليل يبين أثر العواطف والمشاعر، ويكشف عن المحاولات التى بذلها ابراهيم افندى فى الوصول الى غايته .

وقد كان من الطبيعي وقد خلت القصة من هذا العنصر الأساسى أن يلجأ واضعها الى (الحوادث) فيسردها سرداً كأنها خبر من أخبار الصحف اليومية

مطبعة فاروق (محمد عبدالرحمن)

٢٨ شارع المدابغ القاهرة